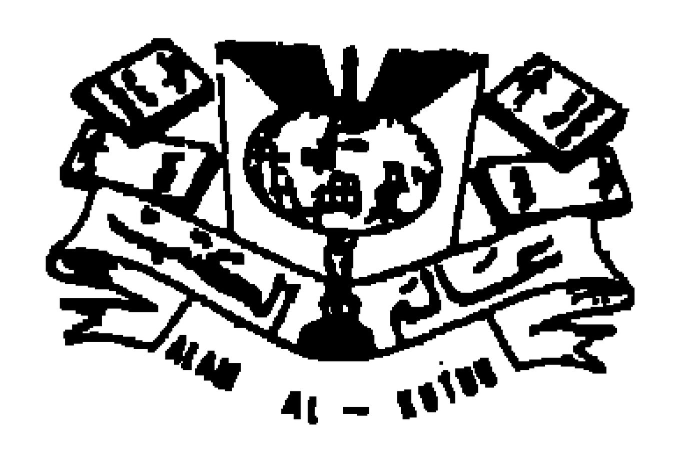

العسكرية الإسلامية
في العصر المملوكي
تأليف
الدكتور أحمد محمد عدوان
عالم الكتب
ALAM AL - KUTUB
Bibliotheca Alexandrina
01138165

العسكرية الإسلامية في العصر المملوكي

تأليف

الدكتور أحمد محمد عدوان

استاذ التاريخ الاسلامي المشارك
بجامعة الملك سعود



١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م

طبع وانتاج دار عالم الكتب للنشر والتوزيع
تلفون ٤٦٣١٣٣٦ - ٤٦٣١٧٢٢ - ص ب ٦٤٦٠ الرياض ١١٤٤٢


بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن
رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم﴾

صدق الله العظيم

بسم الله الرحمن الرحيم

والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم الأنبياء والمرسلين وبعد.

إن هذه الأمة لا بد لها وأن تدرك أن حاضرها يجب أن يكون امتداداً لماضيها، وإن غدها يجب أن يكون وليداً لحاضرها، إن أمتنا الإسلامية اليوم تمر بمرحلة قاسية وشاقة من تاريخها ولا بد أن تتجاوزها بنجاح، كما فعل ذلك السلف الصالح عندما تعرضوا لهجمات من الشرق والغرب.

ومع إدراك بصير بهذه الحقائق وشعور عميق بحاجتنا إليها، وضعت هذا البحث ليكون تذكرة تتفتح لها الآذان الواعية وتتلقاها الهمم العالية لدفع أمتنا الى الاعتماد على النفس، كما فعل الآباء والأجداد، وكما هو موضح في متن هذا البحث فأعدوا قوتهم وصنعوا لأنفسهم كل ما يحتاجون اليه في المجالين العسكري والمدني، ونجحوا في الدفاع عن عقيدتهم وأرضهم استجابة لأمر الله سبحانه في قوله **﴿واعدوا لهم ما استطعتم من قوة﴾** وما أشبه اليوم بالبارحة.

ولسوف يدرك المتصفح لهذا البحث المستوى الرفيع الذي وصلته القوات الإسلامية من ذلك الوقت من حيث الإعداد والتنظيم

والتدريب، وإقامة مصانع الأسلحة الضخمة التي أنتجت الأنواع الكثيرة المختلفة الاستعمالات والفعاليات، وسيجد الأبناء أن الآباء والأجداد قد توصلوا الى تصنيع العديد من الأسلحة الخطيرة التي كانوا يعتقدون الى عهد قريب أنها من مبتكرات العصر الحديث.

وعلى العموم فقد بدأت هذا البحث بفصل يوضح ظروف قيام الدولة ومراحل إعداد قواتها العسكرية وأهم فرق الجيش وثكناته ومرتباته، كما أشرت الى تكريم الدولة لرجاله الذين يصلون الى مرحلة الشيخوخة.

ثم استعرضت في فصل آخر حركة التصنيع العسكري فأشرت الى مصادر المواد الخام التي اعتمد عليها التصنيع، ثم قسمت أسلحة الجيش الى قسمين، الأول الأسلحة البرية والثاني الأسلحة البحرية، أما البرية فقد أشرت الى الأسلحة التقليدية المعروفة كالسيف والرمح والقوس.. الخ وما أدخل عليها من تعديلات وتحسينات تتناسب وطبيعة المرحلة - ثم تحدثت عن الأسلحة الثقيلة والفتاكة التي أخرجتها المصانع المملوكية، كأبراج الحصار والدبابات والمدافع والمجانيق والنار الإغريقية والغازات السامة والمياه المهلكة. ومختلف أنواع القنابل التي فاق البعض منها المخترعات الحديثة كذلك تحدثت عن المقذوفات وقدور النفط والمواد المستخدمة من هذه الصناعات.

وفي نفس الوقت تعرضت للأسلحة البحرية وأهم أنواع السفن الحربية ودور صناعتها، كما أشرت الى أماكن تخزين السلاح والهيئة التي تشرف على تصنيعه وتخزينه والمحافظة عليه مع بيان مصادر التمويل اللازمة.

بعد هذا أفردت فصلاً خاصاً تحدثت فيه عن تدريب الجيش على مختلف الأسلحة المشار إليها، وأهم الأساليب التي كانت متبعة

في تدريب القوات البرية، وأهم أماكن التدريب، كذلك تعرضت للتدريبات والمناورات البحرية التي كانت تقوم بها مختلف السفن الحربية.

بعد هذا، ألا يجوز للقارىء أن يطرح استفساراً حول الكيفية التي سيكون عليها عالمنا الإسلامي لو أن حركة التصنيع العسكري هذه قد استمرت الى يومنا هذا؟

وفي ختام هذه السطور لا يفوتني أن أتقدم بوافر الشكر والتقدير لكل من ساعدني على إخراج هذا البحث الذي أرجو أن يكون حافزاً لشباب أمتنا المجيدة أن يستوعبوا تلك التجربـة، ويعدوا أنفسهم ليوم النصر المبين.

وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين الى يوم الدين.

المؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على رسولنا الكريم محمد بن عبد الله عليه أفضل صلاة وأذكى تسليم وبعد،

فهذا بحث حاولت فيه أن ألقي الضوء على جانب هام من جوانب حضارتنا، والمدى الذي وصلت إليه العبقرية العسكرية الإسلامية، تنظيمًا وتدريباً بالنسبة للأفراد، وحركة تصنيع عسكري هائلة ودقيقة لأنواع من الأسلحة المختلفة الأنواع والاستعمالات والفعاليات، والتي يحسبها الناس أنها من مبتكرات العصر الحديث.

وفي هذا البحث سوف يجد القارىء نفسه مجبراً على تغيير تلك المفاهيم القديمة التي كان يحملها، خاصة وأن الحقائق التي بين يديه قد أخذت من مصادر أولية مخطوطة لم تنشر بعد. وقبل أن أدخل في تفاصيل الموضوع أحب أن أشير الى بعض الحقائق التاريخية ذات الصلة بالموضوع، فالحقيقة الأولى، هي أن الدولة المملوكية - التي انتقل إليها ميراث الدولة الأيوبية - كانت تتبوأ مركز الصدارة في العالم الإسلامي في ذلك الوقت الذي نجحت فيه أيضاً في فرض هيبتها واحترامها في بلدن العالم المسيحي. ومن هذه الحقيقة انبثقت الحقيقة الثانية وهي أن دولة المماليك نجحت في التصدي لأكبر خطرين هددا العالم الإسلامي أرضاً وعقيدة، تمثلا في الغزو الصليبي القادم من الغرب والهجمة المغولية الزاحفة من الشرق، وحدثت اتصالات بين غزاة الغرب وغزاة

الشرق هدفها تدمير الإسلام وأهله واحتلال أرضه، وقد ترتب على هذه الاتصالات ظهور الحقيقة الثالثة وهي أن ملوك أوروبا ومعهم البابوية أجهدوا أنفسهم في بذل محاولات عديده لتحويل ذلك الزخم البشري الهائل المجاور للعالم الإسلامي من جهة الشرق الى المسيحية حتى يصبح عالمنا الإسلامي بين شقي الرحا. أما الحقيقة الرابعة فهي إدراك المماليك لما يدور بين أعدائهم من اتصالات، فصمموا على مواجهة هذه الأخطار بقوة وإيمان لا يتزعزع وثقة في الله كبيرة، فها هم يخرجون الى عدوهم ومعهم المقرؤون\يقرأون القرآن الكريم ويرافقهم سلطان البلاد وخليفة المسلمين يحثهم على القتال أثناء سيره معهم قائلاً «يا مجاهدون لا تنظروا لسلطانكم، دافعوا عن دين نبيكم صلى الله عليه وسلم» فكان نصر الله والفتح إذ اقتلعت آخر جذور الحركة الصليبية من أرضنا الإسلامية، وهزمت جحافل المغول وحجمت هجمتهم، ومن ثم تحولوا إلى العقيدة الإسلامية الغراء، فكانت لطمة عنيفة وجهت إلى أوروبا عندما دخل هؤلاء في دين الله أفواجاً.

أما الحقيقة الخامسة، فهي أن أوروبا أدركت عجزها عن قناعة، وأنها لا تستطيع مواصلة العداء، وقد شاركتها البابوية هذا الشعور فأخذوا يرسلون الوفود للبلاط المملوكي بهدف توقيع اتفاقيات ومعاهدات للصلح والتعاون، وأن الدارس لنصوص هذه المعاهدات يتبين له أن اليد الإسلامية كانت هي العليا، وكرد فعل لهذا الواقع المرير بالنسبة لهم برزت حقيقة سادسة، وهي أن المماليك تعرضوا لحملة حاقدة من التشويه والتجريح وألقيت عليهم الاتهامات الباطلة على يد أناس أعماهم التعصب، فلجأوا إلى أقلامهم بعد أن تحطمت رماحهم وكسرت سيوفهم، وأخذوا ينادون بضرورة مقاومة المد الإسلامي المتصاعد بزعامة المماليك وأخذوا يضعون النظريات لفرض حصار اقتصادي على الشواطىء الإسلامية، ومنع وتحريم التبادل التجاري مع المسلمين وتوقيع الحرمان وأقصى العقوبات على المخالفين.

ومن خلال تلك الحقائق والأحداث اتجه المماليك نحو بناء قوتهم

العسكرية حتى أصبحت لديهم جحافل مدربة ومسلّحة تسليحاً متقدماً واعتمدوا بعد الله على أنفسهم في كل صغيرة وكبيرة لها صلة بالتدريب أو التصنيع كما سيتبين من ثنايا البحث الذي يضم خمسة فصول.

الفصل الأول يتناول قيام دولة المماليك، تحدثت فيه عن استخدام المماليك في الجيش الإسلامي بصفة عامة وفي الجيش الأيوبي بصفة خاصة كما تعرضت الى أهم المراكز التي كانت تصدر المماليك وأهم العوامل التي ساعدت على ازدهار هذه التجارة، ثم تحدثت عن انتقال السلطة الى المماليك.

أما **الفصل الثاني** فقد تحدثت فيه عن الجيش المملوكي وتناولت ديوان الجيش وفرقه ورواتبه ومساكنه ومجلس حربه، وكيفية معاملة الأسرى.

ثم تناولت في **الفصل الثالث** الأسلحة التى يستخدمها الجيش المملوكي ويقوم بتصنيعها بنفسه فكان منها الأسلحة التقليدية المعروفة، كما أشرت الى الأسلحة الوقائية، وتحدثت بالتفصيل عن الأسلحة الثقيلة ولا سيما أبراج الحصار والدبابات والسلاح المضاد للزحافات، كذلك تحدثت عن النار الإغريقية ومكاحل البارود والمدافع، والمقذوفات وأنواع القنابل، كما تحدثت عن صناعة الغازات السامة؛ والمياه المهلكة.

وقد احتوى **الفصل الرابع** على أماكن تخزين السلاح ومراكز صناعته، كما تناول الحديث موارد الصرف على السلاح خاناه، وكذلك الموظفون المشرفون على حركة التصنيع العسكري. كما تحدثت في هذا الفصل عن الاسلحة البرية وأهم دُور الصناعة وأنواع السفن المنتجة والأسلحة المستخدمة في الأسطول.

أما **الفصل الخامس** فقد تحدث عن التدريب العسكري للقوات البرية والبحرية ومراحل التدريب وأهمية الحمام الزاجل وسلاح الفرسان.

أسأل الله سبحانه وتعالى التوفيق والسداد وأسأله العون، إنه نعم المولى ونعم النصير وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين.

الفصل الأول

قيام دولة المماليك

يرى بعض المؤرخين أن أول استخدام للمماليك في الجيش الإسلامي كان في عهد الخليفة المعتصم العباسي [1]، إلا أن هذه المسألة تحتاج إلى إعادة نظر، خاصة وأن استقراء بعض المصادر تبين لنا عدم صحة الرأي السابق، فالبلاذري عندما يتحدث عن الصراع بين مصعب بن الزبير والمختار الثقفي، يذكر أن (مصعب) قد استخدم المماليك في جيشه كقوات مقاتلة [2] وكذلك الطبري يتحدث عن استخدام نصر بن سيار لحوالي ألف مملوك جهزهم بالخيل والسلاح [3].

وعلى العموم سار حكام الدول الإسلامية على هذه السنّة فأكثروا من المماليك تدعيمًا لقوتهم، كما فعلت ذلك الدولة الطولونية، ومن بعدها الدولة الأخشيدية، وعندما انتقل الفاطميون الى مصر كان المماليك يشكلون عنصراً من عناصر جيشها، وعندما سقطت دولتهم على يد السلطان صلاح الدين أخذ نفوذ هؤلاء المماليك في الزيادة والوضوح خاصة بعد وفاة السلطان صلاح الدين، وحدوث الانقسام والصراع بين أبناء البيت الأيوبي، الأمر الذي دفع هؤلاء الى الإكثار من عملية الشراء، وبالذات السلطان الصالح نجم الدين أيوب الذي دخل في صراع مع أقاربه فاستكثر من المماليك وأسكنهم جزيرة الروضه، كذلك كان سلاطين الدولة المملوكية، الذي نشطوا بشكل ملحوظ في شراء المماليك لأنهم كانوا عماد دولتهم وقوتهم العسكرية ولذلك سهروا على ترتيبتهم وتنشئتهم كما سنرى.

كـانت الغالبية العظمى من هؤلاء المماليك يجلبون من شبه جزيرة القرم وبلاد القوقاز والقفجاق[٤] وآسيا الصغرى وفارس وتركستان وبلاد ما وراء النهر[٥]، وكان فيهم من الروم والروس والأكراد [٦]، هذا فضلاً عن أقلية من بعض البلدان الأوروبية[٧].

وقد ساعد التجار في جلب هذه الأعداد الكبيرة ـ من المماليـك ـ تلك الحروب الطاحنة التي شنها المغول على جيرانهم ولا سيما القفجاق، فقتلوهم وسلبوا ذراريهم وأباحوهم، فجلبهم التجار إلى الآفاق وباعوهم[٨]. كذلك ساعد ثراء الدولة المملوكية وتواتر الأخبار بأن في وظائفها وسلطنتها ميدانا فسيحاً لكل ذي موهبة وقدرة، كل ذلك كان سبباً لاجتذاب عدد كبير من أجناس مختلفة الى مصر، ويقال إن ما وصل الى تـركستان من القصص والروايات عن أحوال المماليك في مصر وما يذاع عن ظروفهم الطيبة بالقاهرة كان باعثاً للكثير من أهالي تلك البلاد على بيع أولادهم وبناتهم ليكونوا من حاشية سلطان مصر[٩].

ونضيف هنا عاملاً آخر ساعد على ازدهار هذه التجارة، وهو انتشار الوباء الأسود (الطاعون) في حوض البحر المتوسط، فرغب الأهالي في انقاذ أولادهم من الموت المحقق عن طريق إبعادهم وبيعهم للتجار الذين كانوا يحملونهم الى مصر[١٠] . ويذكر ان هناك عامل آخر ساعد في الإكثار من هؤلاء المماليك وهو الحروب حيث يقع الكثير من الأسـرى الذين كـانوا يستخدمون في الخدمة في كثير من الميادين التي تهم الدولة، وكذلك كانت الهدايا تتضمن أحياناً العديد من الرقيق يجلب الى حضرة السلطان بالإضافة الى ما كان يدفع إليه على هيئة ضريبة أو جزية.

وقد عمل في هذه التجارة تجـار شرقيـون وآخرون من أوروبـا وكان سلاطين المماليك يدفعون مبالغ ضخمة كثمن لبعض المماليك، وكان الناصر محمـد أكثر السـلاطين سخـاء في شراء المـماليك، لهـذا نجد أن التجـار

كانوا يتنافسون في جلبهم إلى مصر حيث يباعوا في أسواق خصصت لهذا الغرض كخان سرور في القاهرة (١١)، وأماكن محدودة في الاسكندرية وغيرها، وكان السلطان يرسل أناساً لديهم خبرة في شراء وفحص المماليك.

وكان هؤلاء المماليك ينسبون إلى التجار الذين جلبوهم حيناً أو إلى سادتهم الذين اشتروهم حيناً آخر ثم إلى الثمن الذي كان يدفع لأحدهم عند شراءه وكانت علاقتهم بسيدهم علاقة طيبة وقوية، لأنه هو الذي أشرف على تربيتهم، لهذا كانوا دائمًا رهن إشارته وينفذون أوامره بدقة، وقد أفادنا المقريزي (١٢) عن الطرق والأساليب المستخدمة لتربيتهم وتنشئتهم إذ يقول « فإذا قدم المملوك تاجره، عرضه على السلطان فيشتريه ويجعله في طبقة من جنسه وسلمه إلى المختص برسم الكتابة، فأول ما يبدأ به تعليمه ما يحتاج إليه من القرآن الكريم، ولكل طائفة فقيه يأتيها كل يوم، ويأخذ في تعليمها القرآن الكريم ومعرفة الخط والتمرن بآداب الشريعة الإسلامية وملازمة الصلوات والأذكار، وكان الرسم إذاك ألا تجلب التجار إلا المماليك الصغار، فإذا شب الواحد منهم علمه الفقيه شيئاً من الفقه وأقرأه فيه مقدمة، فإذا صار إلى سن البلوغ أخذ في تعليمه فنون الحرب من رمي السهام ولعب الرمح ونحو ذلك، ويتسلم كل طائفة معلم حتى يبلغ الغاية في معرفة ما يحتاج إليه، وإذا ركبوا إلى لعب الرمح أو رمي النشاب، لا يجسر جندي أو أمير على محادثتهم أو أن يدنو منهم، عند ذلك ينقل إلى الخدمة، ويتنقل في أطوارها رتبة بعد رتبة إلى أن يصير من الأمراء، فلا يبلغ هذه إلا وقد تهذبت أخلاقه، وكثرت آدابه، وامتزج تعظيم الإسلام وأهله بقلبه، واشتد ساعده في رماية النشاب وحسن لعبه بالرمح، ومرن على ركوب الخيل وقد كان لهم خداماً وأكابر من النواب يفحصون الواحد منهم فحصاً شافياً ويؤاخذونه أشد المؤاخذة ويناقشونه على حركاته وسكناته، فإذا عثر أحد مؤدبيه الذي يعلمه القرآن أو رأس نوبه الذي هو حاكم عليه على أنه اقترف ذنباً أو أخل برسم أو ترك أدباً من آداب الدين أو الدنيا، قابله على ذلك بعقوبة شديدة بقدر

جرمه، لذلك كانوا سادة يدبرون الممالك وقادة يجاهدون في سبيل الله وأهل سياسة يبالغون في إظهار الجميل ويردعون من جار أو تعدى » (١٣).

هذا النص يوضح لنا الصورة التي كان عليها المماليك في أيامهم الأولى والعلوم التي يتلقونها على يد فقهاء أجلاء وكذلك التدريبات العسكرية التي تعدّهم حتى يصبحوا رجال المستقبل وعدته.

وقد أثبتوا بأنهم جديرون بتحمل المسؤولية ذلك أنهم تمكنوا من القضاء على أكبر خطرين هددا العالم الإسلامي في ذلك الوقت وهما الخطر الصليبي والخطر المغولي.

فقد كان لاسترداد بيت المقدس من يد الصليبيين عام ١٢٤٤م، ردة فعل عنيفة هزت أوروبا بأكملها فتنادت إلى القيام بحملة صليبية جديدة قادها الملك لويس التاسع ملك فرنسا المتعصب واتجهت الحملة إلى مصر التي كانت تشكل في تلك الفترة مركز المقاومة الإسلامية وقاعدة الانطلاق التي كانت تهدد البقية الباقية من الإمارات الصليبية.

وعندما وصلت الحملة الصليبية إلى مصر وعلى مشارف دمياط كان السلطان الصالح ضعيفاً مريضاً (١٤) فتمكن الصليبيون من النزول على شواطىء دمياط ودخلوها بسهولة (١٥) بعد أن انسحبت منها القوات التي كان يجب أن تدافع عنها، وعندما علم السلطان بالأمر غضب على مماليكه فشنق بعضهم وصادر البعض الآخر (١٦)، لكن السلطان المريض ما لبث أن توفي أثناء زحف القوات الصليبية من دمياط إلى المنصورة، وقد نجحت شجر الدر زوجة الصالح أيوب بالتعاون مع بعض أمراء المماليك في إدارة المعركة ضد الغزاة وفي نفس الوقت أرسلت إلى تورانشاه ابن السلطان الصالح نجم الدين أيوب تستحثه على الحضور لتولي السلطنة وكان إذّاك في بلاد الشام في حصن كيفا (١٧).

وقد تمكنت القوات الإسلامية وبالذات فرقة المماليك البحرية من الانقضاض على الصليبيين في شوارع المنصورة فشتتوهم وقتلوهم وهزموهم هزيمة ساحقة[١٨] فتقهقر الصليبيون وتبعهم المماليك ولاحقوهم حتى فارسكور [١٩] وكانوا قد قطعوا عنهم الامدادات [٢٠]، وبلغت خسائر الصليبيين في هذه المرة حوالي ثلاثين ألفاً، ما عدا الأسرى الذين كان من بينهم الملك لويس التاسع الذي سجن في دار ابن لقمان [٢١]. وفي تلك الأثناء وصل تورانشاه الذي تمكن من المشاركة في قيادة المعركة وإلحاق الهزيمة بالغزاة.

لكن المؤسف أن المعركة ما إن بدأت تضع أوزارها حتى دب الخلاف بين تورانشاه ومماليك والده وكذلك اختلف مع زوجة والده، وترجع المصادر أسباب الخلاف الى تصرفات صدرت عن تورانشاه أدت في نهاية المطاف الى مقتله على يد هؤلاء المماليك. [٢٢] وبمقتل تورانشاه تنتهي آخر حلقات الدولة الأيوبية التي حكمت البلاد قرابة الثمانين عاماً فانفرد المماليك بالأمر وأصبح عليهم أن يتدبروا الموقف فاختاروا شجرة الدر زوجة السلطان الصالح نجم الدين أيوب سلطانة للبلاد وقد وصفها ابن اياس «بأنها سيدة صعبة الخلق قوية البأس»[٢٣].

أخذت في التقرب الى الأمراء بتوزيع الإقطاعات والخيول والأموال عليهم وساست الرعية أحسن سياسة[٢٤]، ويعتبرها المقريزي أول من حكم مصر من ملوك الترك المماليك، وضربت السكة باسمها وخطب لها على المنابر. لكنها ما أن بدأت تستقر حتى بدأت في معالجة الأمور والقضايا التي تواجهها البلاد، فالصليبيون لا زالوا في دمياط فاتفقت معهم على الجلاء وإطلاق لويس التاسع مقابل مبلغ من المال يدفعون نصفه عاجلاً والنصف الآخر فيما بعد[٢٥]، على ألا يعودوا لمهاجمة شواطىء مصر مرة أخرى[٢٦]، وبعد انسحاب القوات الصليبية من دمياط دخلتها القوات الإسلامية بعد احتلال دام أحد عشر شهراً وتسعة أيام.

إلا أن شجر الدر واجهت بعد الخلاص من الصليبيين مشكلة معقدة أخرى تمثلت في معارضة الخلافة العباسية لولايتها وأرسل الخليفة العباسي رسالته الى رجالات مصر آنذاك وكانوا من المماليك «إن كانت الرجال قد عُدمت عندكم فأعلمونا حتى نسّير إليكم رجلاً»[٢٧] هذا بالإضافة إلى معارضة أبناء البيت الأيوبي في بلاد الشام لولاية شجر الدر وأخذوا بدورهم يعدون العدة لاسترجاع مصر لحكم أسرتهم، فاستولى الملك المغيث الأيوبي على حصن الكرك والشوبك، بينما استولى[٢٨] الملك الناصر الأيوبي على دمشق بدون مقاومة. أمام هذه المشاكل والأخطار طلب أمراء المماليك من شجر الدر أن تتزوج من الأمير عز الدين آيبك وتتنازل له عن العرش.

وتم الأمر فعلاً وأصبح عز الدين آيبك سلطاناً على مصر (٦٤٨-٦٥٥ هـ)، إلا أن القضية لم تقف عند هذا الحد فأبناء البيت الأيوبي لا زالوا يتطلعون الى استرداد مصر من يد المماليك، هذا بالاضافة الى أن عز الدين آيبك سيواجه مشاكل أخرى كثيرة.

اتفق المماليك فيما بينهم على تعيين أحد أبناء البيت الأيوبي سلطاناً على مصر الى جانب آيبك فجاءوا بالأشرف موسى وكان لا يزال طفلاً [٢٩]، ومن الواضح أن هدف المماليك البحرية من هذه الخطوة هو إرضاء الأمراء الأيوبيين من جهة واستئثارهم بالسلطة والحكم من جهة أخرى.

لكن هذه الحيلة لم تنطل على الأيوبيين، بل صمموا على استرداد مصر وكانوا بزعامة الملك الناصر صاحب حلب، لكن محاولته الأولى باءت بالفشل وحاول الناصر مهاجمة مصر مرة أخرى إلا أنه لم يوفق أيضاً [٣٠].

في ظل هذه الظروف بدأ خطر المغول واضحاً من جهة الشرق وأدركت الخلافة أهمية توحيد الجبهة الإسلامية، وتمكن الخليفة من عقد اتفاق بين الطرفين، تكون بمقتضاه مصر وفلسطين حتى نهر الأردن بما في ذلك غزة

والقدس والساحل للمماليك على أن تكون بقية بلاد الشام للأيوبيين[٣١].
وتعتبر هذه الاتفاقية ذات أهمية خاصة في تاريخ المماليك، إذ اعترف الأيوبيون لأول مرة وهم أصحاب الحق في حكم مصر، بحق المماليك الشرعي في حكمها، ومن ناحية أخرى انتهز المعز آيبك فرصة الاتفاق وتخلص من الأشرف موسى [٣٢] كما تمكن من القضاء على ثورة عربان الصعيد.[٣٣] إلا أنه ما كاد يتنفس الصعداء حتى وقع في مشكلة جديدة تتمثل في موقف زعماء المماليك البحرية الذين لم يكونوا راغبين في استمرار حكمه للبلاد وكان يقود حركة المعارضة هذه أقطاي الذي طغى وبغى وتكبر وتجبر. . . وكان أمره مطاعاً لا يُرد والملك المعز معه باسم الملك لا غير[٣٤]، وكل شيء يطلبه من الخزانة السلطانية يأخذه. وقد زاد الأمر تفاقمًا عندما طلب أقطاي من عز الدين آيبك أن يستقر بزوجته في القلعة مركز الحكم في ذلك الوقت، واذا عرفنا أن زوجة أقطاي من البيت الأيوبي زاد الطين بلة[٣٥].

وعندما وصلت الأمور الى هذا الحد بين الطرفين قرر آيبك أن يضع حداً لتصرفات أقطاي، فاستدعاه الى القلعة بحجة استشارته في بعض الأمور[٣٦]، وهناك تخلص منه وقذف برأسه من فوق أسوار القلعة الى رفاقه[٣٧] الذين أفزعتهم المفاجأة وهربوا وتفرقوا فتتبعهم آيبك وصادر أموالهم وأملاكهم[٣٨]، وهدد كل من أخفى أحداً من المماليك البحرية[٣٩] وكان المفروض وقد تخلص آيبك من ضغط البحرية أن يبدأ في إدارة أمور الدولة وتنظيمها وإعادة ترتيب الأوضاع بها إلا أنه وقع في خلاف مع زوجته شجر الدر التي كانت مستوليه على كل أحواله وليس له معها كلام[٤٠]، فدبرت أمر مقتله عام ٦٥٥ هـ لكنها هي الأخرى شربت من نفس الكأس وقُتلت على يد المماليك المعزية ويقال أنها ضربت بالقباقيب حتى ماتت[٤١].

انتخب المماليك نور الدين علي بن عز الدين آيبك ليكون سلطاناً على البلاد بعد والده ولقب بالملك المنصور ٦٥٥ هـ وكان صغير السن[٤٢]، وعين

سيف الدين قطز نائباً للسطنة وفي هذه الفترة تصدى قطز لحملة أعـدها الأيوبيون ضد مصر ولم يُكتب لها النجاح(٤٣).

في هذه الفترة كان الخطر المغولي قد عم منطقة الشرق الإسلامي وأصبح يهدد الخلافة العباسية تهديداً مباشراً، فقد أرسل هولاكو الى الخليفة العباسي يطلب منه تسليم بغداد إلا أن الخليفة رفض طلب(٤٤) هولاكو فاندفعت القوات المغولية نحو بغداد ودخلتها وقُتل الخليفة العباسي، وتقدم المغول في اتجاه الغرب ودخلوا في بلاد الشام(٤٥) وأخذوا يستعدون للزحف نحو مصر. أرسل المغول رسالة الى مصر تطلب من حكامها تسليم البلاد(٤٦)، وهنا عقد قطز مجلساً عاماً لكبار القادة ووجهاء البلاد وتم عزل نور الدين وتعيين سيف الدين قطز سلطاناً على مصر(٤٧) واتخذ المجلس قراراً آخر وهو قتل الرسل وإعلان الحرب على المغول والتصدي لهم(٤٨)، وتقدم على رأس قواته وتقابل معهم في عين جالوت.

ودارت معركة عنيفة انتصرت فيها القوات الإسلامية المملوكية انتصاراً رائعاً وخذلت جيوش الشرك والعدوان(٤٩). وكان لهذا الانتصار الذي حققه المماليك أهمية خاصة في تاريخهم، فدولتهم لا زالت في طور التأسيس وقد جاء هذا النصر ليقوي دعائمها ويشد من أزرها أمام الرأي العام في مصر بصفة خاصة وأمام الرأي العام الإسلامي بصفة عامة حيث أخذ المسلمون في مشرق العالم الإسلامي ومغربه ينظرون نظرة احترام وتقدير لدولتهم إذ يذكر أبو الفدا «وتضاعف شكر المسلمين لله تعالى على هذا النصر العظيم، فإن القلوب قد يئست من النصرة على التتر، لاستيلائهم على معظم بلاد الإسلام ولأنهم ما قصدوا إقليمًا إلاّ فتحوه ولا عسكراً إلا هزموه»(٥٠) هذا بالإضافة الى أن هذا الانتصار قد أدّى الى القضاء على آمال البيت الأيـوبي بصفة نهائية.

بعد هذه المعركة يمكن لنا أن نقول بأن دولة المماليك قد أصبحت حقيقة

واقعة ثابتة الأركان قوية البنيان يطلب ودها والصداقة معها العديد من الدول سواء في الشرق أو الغرب، لأنها قهرت العدوان الصليبي القادم من الغرب وهزمت الزحف المغولي الذي تحول فيما بعد قوة لصالح الإسلام والمسلمين عندما تحول هؤلاء الى الإسلام.

الهوامش

(١) ابن خلدون ـ العبر ٥/٣٧٠ ـ ٣٧١.

Lane Poll. Hist of Eggpt P 243

Ayalon. D. The mamluk military army P 205

(٢) البلاذري ـ فتوح البلدان.

Ayalon. The mamluk military P 205.

(٣) الطبري ـ تاريخ الرسل حوادث ١٢٥ هـ.

(٤) تشمل بلاد القفجاق حوض الفولجا والأرض الواقعة حول بحر قزوين.

Lane. poole. Hist of Egypt 243.

(٥) اميل لودنغ ـ النيل ص ٦١٤.

(٦) السيوطي ـ حسن المحاضرة ٢/١٢٩.

(٧) ابن خلدون ـ العبر ٥/٣٧٠ ـ ٣٧١.

علي مبارك ـ الخطط التوفيقية ١/١٣٣ ـ ١٣٤.

Heyd: Hist Du Commerce Vol II P 260.

(٨) ابن دقماق ـ الجوهر الثمين ورقة ١٠٧.

(٩) علي ابراهيم حسن ـ تاريخ المماليك البحرية ص ٢٥ Muir — The mamluks P 3

(١٠) انطوان ضومظ ـ الدولة المملوكية ص ٢٥.

(١١) المقريزي ـ الخطط ١/٣٧٤.

(١٢) ن م ـ الخطط ٢/٢١٣ ـ ٢١٤.

(١٣) Ayalon D. The mamluk military society X P15.

(١٤) المقريزي ـ السلوك، جـ ١ ق ٢، ٣٣٣.

(١٥) ن م ص ـ ابن اياس بدائع الزهور ١/٨٦.

(١٦) العيني ـ عقد الجمان حوادث ٦٤٧ هـ.

(١٧) أبو الفدا ـ المختصر ٤/١٨٩، أبو المحاسن ـ النجوم ٦/٣٦٤.

(١٨) العيني ـ نفس المصدر وانظر Clubb — y The Story Of The mamluks 39.

(١٩) اسماعيل سرهنك ـ حقائق الأخبار ٣/٨٩.

(٢٠) Lane poole. Hist of Egypt 235

Fatima Sadique. Bay Bars I P 34

(٢١) المقريزي ـ السلوك ١/٣٥٢، أبو المحاسن ـ النجوم ٦/٣٦٧.

أبو الفدا ـ المختصر ٤/١٩٠.

Clubb. y The story of the mamluks P 41

(٢٢) ابن اياس ـ بدائع الزهور ١/٨٨، ابن خلدون ـ العبر ٥/٣٦٠.
العيني ـ عقد الجمان حوادث ٦٤٨ ورقة ٣٢٤.
(٢٣) ابن اياس ـ بدائع الزهور ١/٩١.
(٢٤) ن م. ن ١/٨٩.
(٢٥) أبو المحاسن ـ النجوم ٦/٣٦٩.
(٢٦) أبو الفدا ـ المختصر ٤/١٩٠، ابن خلدون ـ العبر ٥/٣٦١.
(٢٧) المقريزي ـ السلوك ١/٣٦٩.
(٢٨) ابن واصل ـ مفرج الكروب جـ ٢ ورقة ١٥٣، العيني ـ عقد الجمان ورقة ٣١٨.
المقريزي ـ السلوك ١/٣٦٦ ـ ٣٦٩.
(٢٩) ابن حبيب ـ درة الأسلاك ورقة ٢، ٣ .
(٣٠) اليونيني ـ ذيل مرآة الزمان ١/٥٨، ابن خلدون ـ العبر ٥/٣٦٢.
(٣١) أبو المحاسن ـ النجوم ٧/١٠، ابن حبيب ن م ورقة ٤٤ .
(٣٢) ن م ـ ن ٧/١٢ .
(٣٣) المقريزي ـ السلوك ١/٣٨٧.
(٣٤) ابن آيبك ـ كنز الدرر جـ ١ ق ١ ورقة ٢٢ .
(٣٥) أبو المحاسن ـ النجوم ٧/١١ .
(٣٦) المقريزي ـ السلوك ١/٣٩٠.
(٣٧) اليونيني ـ ذيل مرآة الزمان ١/٥٨، ابن خلدون ـ العبر ٥/٢٦٣ .
ابن دقماق ـ الجوهر الثمين ورقة ١٠٩ .
(٣٨) ابن دقماق ـ ن م ورقة ١١٠ .
(٣٩) المقريزي ـ السلوك ١/٣٩١.
(٤٠) أبو المحاسن ـ النجوم ٦/٣٧٤.
(٤١) المقريزي ـ السلوك ١/٤٠٠ ـ ٤٠١ .
(٤٢) ابن العماد ـ شذرات الذهب٥/٢٦٧، اليونين ١/٤٧.
(٤٣) الدوادار ـ زبدة الفكرة ٩ ورقة ١٢ .
(٤٤) أبو الفدا ـ المختصر ٤/٢٠٢ .
(٤٥) ابن حبيب ـ درة الأسلاك ١/٢٣، ابن خلدون ـ العبر ٥/٣٦٤.
(٤٦) راجع نص الخطاب في زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ٢٨ ـ ٣٠
وابن العبري ـ مختصر ٤٨٥ ـ ٤٨٦ .
(٤٧) ابن واصل ـ مفرج الكروب ٢ ورقة ١٧١، أبو المحاسن ـ النجوم ٧/٥٤ .
(٤٨) ابن دقماق ـ الجوهر الثمين ورقة ١١٣ Muir. The mamluks P 9 — 12.
(٤٩) ابن حبيب ـ درة الأسلاك جـ ١ ورقة ٢٦، ٢٧ .
(٥٠) أبو الفدا ـ المختصر ٣/٢١٤ .

الفصل الثاني

الجيش المملوكي

ذكرنا فيما سبق كيف أن المماليك بعد شرائهم كانوا يقيمون في طباق حيث يتم تعليمهم وتدريبهم، وكان يشرف على هذه العملية مؤسسة من أكبر المؤسسات في الدولة آنذاك وأعني به ديوان الجيش الذي اتخذ من القلعة مقراً له، وفيه تحفظ كل الأوراق الرسمية ذات الصبغة العسكرية، ويرأس هذا الديوان ناظر الجيش الذي يساوي وزير الحرب في أيامنا هذه، ويساعده أربعة معاونين وهم:

١ ـ صاحب ديوان الجيش، ويلي ناظر الجيش في الرتبة وينوب عنه في تصريف شؤون هذا الديوان إذا غاب.

٢ ـ مستوفي الجيش ويقوم بتحديد مرتبات الجند التي كانت تدون في كشوف خاصة وتعتمد من السلطان وكان يشرف على هذا العمل شخصان الأول يتعلق بمصر والثاني بجند الشام، ويرجع السبب في ذلك أن ديوان الجيش كان له فرعين رئيسيين أحدهما ديوان الجيش المصري والثاني ديوان الجيش الشامي[١].

٣ ـ مستوفي إقطاعات العرب ويشرف على إقطاعات العرب.

٤ ـ مستوفي الرزق ويشرف على صرف مرتبات الجنود.

ويشترط في هؤلاء الموظفين أن يكونوا على جانب كبير من الأمانة والدقة في تصريف الأمور التي يشرفون عليها والدراية بدقائق أعمالهم[٢]، ويساعد هؤلاء عدد كبير من الموظفين كل حسب اختصاصه.

وهنا يجب ألا يفوتنا ذكر نقيب الجيش الذي يعهد اليه حراسة السلطان في حله وترحاله ويشرف على الاستعراضات العسكرية، كما يتكلم عنه وقت المحاكمة التي تعقد للخصوم من المماليك في طباق القلعة وينقل إجابتهم إليه(٣)، ونقيب الجيش يختار من أمراء العشرات، وله هيبة في نفوس الناس والجند(٤).

هذه هي الهيئة التي تدير ديوان الجيش وتشرف على تصريف أموره متعاونة في ذلك مع ناظر الجيش الذي وصفه خليل بن شاهين «وقد اجتمع أهل الدراية بتدبير الممالك، ومن انتصب لإصلاحها بإيضاح الطرق والمسالك، إن من فراسة المملكة وسياقة الدولة ضبط أمور الجيش وحفظ أحوال الجند، فإنه قطب مدارها وسبب استقرارها، فيتعين الاعتناء به والنظر في مصالح كتابه فإن شأنه أرفع وديوانه أجمع وعلمه أوسع. لا سيما في دولة فسيحة الأرجاء واسعة الأكناف قد دلت جريدة جيشها على الآلاف فتحتاج الى ترتيب منازلهم على قدر طبقاتهم وضبط مقادير إقطاعاتهم ورعاية مبادىء مددهم وأوقاتهم ومعظم هذه الأمور منوطة بناظر الجيش المشار اليه الذى مداره جميع أحوال المملكة على ما يصدر عنه ويرد إليه»(٥).

من هذا النص تتضح لنا أهمية ناظر الجيش وخطورة منصبه والمهام الموكلة إليه فهو الذي لديه سجلات بها أسماء الجند وقادة الجيش، وكانت أسماء الجند تعرض بديوان الجيش، إلا أنه لما زاد عدد القوات العسكرية، أصبح الامراء يدونون أسماء جنودهم في دواوينهم الخاصة، ثم يضعون مثل هذه السجلات في ديوان الجيش بالقلعة، وإذا مات أحد الأجناد أو فصل يحل محله آخر ويتناول إقطاعه الذي كان يتناوله الأول من ديوان ذلك الأمير، أما انتقال جندي من خدمة أمير إلى آخر فلا تكون إلا بإذن السلطان أو نائبه.

أمراء الجيش ودرجاتهم.

اختلفت درجات الأمراء ورتبهم فمنهم من له أمرة مائة فارس. ومقدماً

على ألف في وقت القتال من أجناد الحلقة، فيقال له أمير مائة مقدم ألف، ومن هذه الرتبة يكون نواب الأقاليم والولايات.

يلي هؤلاء أمراء الطبلخاناتومعظمهم من يكون له أمرة أربعين فارساً وقد يزيدون الى سبعين أحياناً، ولا تكون الطبلخانات لأقل من أربعين.

يأتي بعدهم أمراء العشرات، وبعضهم من يكون له عشرون فارساً، ولا يعد إلا في أمراء العشرات، وأمراء عشرة يكون عشرة مماليك في خدمة كل منهم، ويلي هذه الفئة أمراء خمسة ويكون في خدمته خمسة مماليك،وهم كأكابر الجند (٦).

تكوين الجيش المملوكي.

تألف الجيش المملوكي من ثلاث فرق رئيسية، أولها وأهمها المماليك السلطانية وثانيها أجناد الحلقة وثالثها أجناد الأمراء. أما المماليك السلطانية:

« فهم أعظم الأجناد شأناً وأرفعهم قدراً وأشدهم إلى السلطان قرباً وأوفرهم إقطاعاً ومنهم تؤمر الأمراء رتبة بعد رتبة » وهم ينقسمون إلى عدة فئات:

١ ـ الخاصكية.

وهم الذين يلازمون السلطان في كل تحركاته ويقومون بالمهمات الشريفة، ويمتازون عن بقية المماليك السلطانية بأن السلطان نفسه يشرف على تربيتهم وعتقهم ولذلك كانوا أكثر قرباً منه عن غيرهم من المماليك ومن بينهم كان الترشيح للإمارة ونيابة الأقاليم والقلاع(٨).

٢ ـ الأجلاب أو المشتروات

وهم مماليك يشتريهم السلطان ويضعهم في الطباق، ويشرف على تربيتهم الطواشية ومقدمي المماليك الذين عرفوا بالصرامة والورع وشدة الانضباط

فمقدم المماليك في عهد السلطان قلاون كانت له سطوة ومهابه لا يجرؤ أن يسير أمامه أحد دون إستئذان(٩). وبعد أن يتم المماليك تربيتهم في الطباق كانوا يعتقون وينعم عليهم بالخيل والقماش بالاضافة الى السلاح والجامكية والإقطاعات (١٠).

٣ ـ السيفية:

وهم على نوعين:
(أ) مماليك منسوبون الى السلطان السابق.
(ب) مماليك منسوبون إلى الأمراء وقد نقلوا إلى الديوان الشريف (١١).

وكانت المماليك السيفية ضعيفة الترابط لأنها لم تكن تنتمي فيما سبق لأمير واحد، لذلك كانوا لا يعرفون بعضهم البعض الآخر.

٤ ـ القرانيص:

وهم مماليك السلاطين القدامى وكانوا فئتين:

الأولى: مماليك السلاطين المتوفين من أمد بعيد.

الثانية: مماليك السلاطين الذين لم يمض على وفاة أساتذتهم مدة طويلة، ومعنى هذا أن القرانيص لم يكونوا فرقة عسكرية واحدة وذلك لانتساب كل جماعة منهم الى السطان الذي أعتقهم لكنهم بصفة عامة كان موقفهم من الأجلاب المشتروات موقفاً غير منسجمًا، وكان الواحد من هؤلاء القرانيص يعتبر برتبة أمير خمسة(١٢).

هذه هي فئات المماليك السلطانية ويلاحظ أنهم لم يكونوا جميعاً على مستوى واحدٍ من المعاملة، الأمر الذي زرع في صفوفهم نوعاً من الغيرة والحسد.

٥ ـ أجناد الحلقة :

وكانوا يعتبرون قلب الجيش المملوكي وهم الذين كان ينشئهم السلاطين دون فئات مماليك الأمراء، ثم ازداد عدد أجناد الحلقة بمن انضم إليهم من التتار والوافدية[١٣]، كما انضم إليهم بعض أرباب الصنائع والحرف، على أثر الضعف الذي أصاب الجيش حين أصبح أفراده يبيعون إقطاعاتهم إلى أهالي البلاد وأضيف إلى أجناد الحلقة أحياناً مماليك الأمراء الذين انحلت إقطاعات أساتذهم، كما اعتبر من أجناد الحلقة العربان والأكراد والتركمان بحيث تركز عملهم في حماية أطراف الدولة والاشتراك بفرسانهم في الحرب عندما كانت تدعو الحاجة إلى ذلك[١٤]، وقد نظم أجناد الحلقة في الحرب والسلم إذ جعل على كل أربعين جندي مقدم، وهذا المقدم لم يكن له عليهم أية سلطة إلا أثناء الحرب[١٥]، وعندما كان يدعى أجناد الحلقة للقتال كان ينضوي كل ألف منهم تحت إمرة أمير مئة[١٦] وكان لكل ماية جندي منهم أيام السلم نقيب أو باش يأتمرون بأمره. وكانت تصرف مرتباتهم من ديوان الجيش[١٧].

ومن الجدير بالذكر أنهم كانوا يأتمرون بأمر السلطان القائم دون أن يكونوا ملكاً له ومعنى هذا أنهم كانوا بمثابة الجيش الدائم للدولة، وكانوا يقسمون من حيث العمل الذي يؤدونه أربعة أقسام: البحرية وهم حرس السلطان في القلعة، وكانوا ينامون في الدهاليز المحيطة بالقلعة، والشريفية وهم الذين كان يرسلهم السلطان في سفاراته، ومماليك الغيبة الذين كان يعينهم السلطان في مراكز محددة إبان غيابه والباقي فرق تخدم في بيوت الأمراء[١٨].

٦ ـ أجناد الأمراء

وهم يتبعون أمراءهم مباشرة وكان جيش الأمير يتوقف في عدده على حسب الحالة المادية لهذا الأمير أو ذاك، ومن مجموع هؤلاء الأمراء وأجنادهم والمماليك السلطانية والحلقة تكونت القوات المسلحة المملوكية. وكان يقودها السلاطين الى

معاركهم التي خاضوها، ومما يدل على أهمية أجناد الأمراء ما يقوله المقريزي في هذا المقام « إن سقام الأمراء بمماليكهم »[١٩]، وكان هناك فرقة في الجيش تسمى أولاد الناس، وقد شملت هذه الفرقة أبناء الأمراء فقط، وهي نوع من الاحتياط الحربي يدعى الى السلاح في حالة الحرب وتدفع لهم مرتبات سنوية نقدية أو إقطاعات.

رواتب الجند

المعروف أن مرتبات الجند كانت تعتمد إلى حد كبير على الاقطاعات التي كان يوزعها السلطان على الأمراء والأجناد، ولهذا فإن حديثنا سوف يتناول هذه الناحية بالتفصيل، وسوف يتضح لنا أن مرتبات الجند وأعطياتهم كانت تسير وفق نظام دقيق ومحكم.

فالإقطاع كما هو معروف يعتبر أمراً شخصياً لا دخل لحقوق الملكية أو لأحكام الوراثة فيه، فكان المقطع يحل في الإقطاع محل السلطان ليتمتع بغلاته وإيراداته فقط، ويعاد الإقطاع الى السلطان مجرد انتهاء المدة المتفق عليها، أو بسبب وفاة المقطع إذا كان الاقطاع مدى الحياة، وقد اعتاد سلاطين المماليك أن يقوموا بتوزيع الإقطاعات بأنفسهم على المماليك الذين يلحقون بالقوات العسكرية، فاذا حضر الراغب في الاقطاع أو اختاره السلطان، يؤمر ناظر الجيش بكتابة ورقة تسمى المثال [٢٠] وهو أول ما يكتب من الأوراق الرسمية إيذاناً بإعطاء أحد المماليك إقطاعاً من الإقطاعات الخالية، ويخرج من ديوان الجيش، ويقدمه ناظر الديوان الى السلطان أثناء جلوسه بدار العدل فإذا وافق عليه السلطان، أرسله ناظر ديوان الجيش الى ديوان النظر لتسجيله وحفظه فيه، ويكتب بذلك مربعة [٢١]، وهي ورقة مربعة الشكل يكتب فيها اسم المعين على الإقطاع ورتبته وعدد أجناده، ثم ترسل هذه المربعة الى ديوان الإنشاء فيحولها كاتب السر على من يكتب بها «منشور» الإقطاع وذلك عن طريق المدير المختص، وهذه الوثيقة الأخيرة هي التي تجعل الإقطاع

شرعياً على المقطع الجديد[٢٢] وكانت إقطاعات الحلقة التي تخرج بها المنشورات من ديوان الجيش وقفاً على أجناد الحلقة دون سائر طوائف الجند مثل المماليك السلطانية الذي كانوا يمنحون الرواتب المنتظمة ومماليك الأمراء الذين كانوا يعيشون في أكناف أساتذتهم[٢٣].

فالمماليك السلطانية كانت تدفع لهم مرتبات من مال السلطان أحياناً ومن بيت المال أحياناً أخرى، وبهذا يستفيد المماليك السلطانية بدفع رواتبهم شهرياً وبشكل منتظم بالإضافة الى استفادتهم من النفقة السلطانية وكذلك الهدايا والخلع، ويجب أن نشير هنا إلى أن الرواتب لم تكن موحدة أو ثابتة[٢٤]، لكنها كانت تخضع لرغبة السلاطين وأهوائهم بالإضافة الى قدرة الجندي وكفاءته[٢٥]، ولا يجب أن ننسى بأن السلطان كان يقدم لأجناده وأمرائه في كل يوم اللحم والخبز وغير ذلك بالإضافة إلى عليق دوابهم وفي المناسبات كان يقدم لهم الهدايا وخاصة في شهر رمضان[٢٦]، وكان يوزع عليهم الكسوة مرتين في السنة[٢٧]، كذلك كان السلاطين الجدد عند اعتلائهم العرش يقدمون للمقربين منهم الهدايا والخلع، وكذلك كانت الأموال توزع عليهم عند خروجهم للقتال.

هذا ومن الجدير بالذكر أن مكافأة المملوك كانت أحياناً تعني ترفيعه أو ترقيته، أما عن شروط الترقية فإلى جانب ما ذكرناه من شروط لدفع الرواتب بنسب مختلفة كانت علاقة المماليك بأستاذهم وهي ما تسمى برابطة الأستاذية أو الخشداشية نضيف إليها الاجتهادات الشخصية للسلاطين أو نوابهم [٢٨].

هذا ولا بد أن نذكر هنا أن مرتبات الأمراء والأجناد كانت غير ثابتة وإنما متغيرة تبعاً لوضعية الإقطاعات التي تتأثر بعملية مسح الاراضي بين الحين والآخر وهو ما يسمى بروك الأرض.

فأراضي مصر كانت تنقسم إلى أربعة وعشرين قسمًا أوقيراطاً، وكانت موزعة كالتالي:

أربعة قراريط للسلطان.

عشرة قراريط للأمراء.
عشرة قراريط للأجناد[٢٩].

وقد ظل هذا التقسيم قائمًا حتى سلطنة المنصور لاجين ٦٩٦/١٢٩٦، حيث كانت الإقطاعات قد اضطربت أمورها منذ عهد السلطان الأشرف خليل، حيث فوض نائبه بيدرا الذي استحوذ على كثير من الأراضي، بحيث لم يبق إقليم إلا ومعظمه في يده أو في يد عماله والمقطعون لا يتركون لهم إلا ما يتصدقون به عليهم فتضرروا وكرروا الشكوى وأكثروا منها[٣٠]، وعندما أيقن السلطان بصحة الشكوى أمر بروك البلاد، وكان السبب في ذلك بالإضافة إلى ما ذكرنا، أن الأمراء كثيراً ما يأخذون من إقطاعات الأجناد، فلا يصل إلى الأجناد منها شيئاً ويعتبر ذلك الإقطاع من دواوين الأمراء[٣١] الذي يحتمي بها قطاع الطرق، وتثور بها الفتن، وتقوم بها المشاحنات وتمنع منها الحقوق والمقررات الديوانية وتصير كلها للأمراء، فأبطل السلطان ذلك، ورد تلك الإقطاعات على أربابها من الأجناد وأخرجها بأسرها من دواوين الأمراء[٣٢].

قام السلطان لاجين بتقسيم الأرض تقسيماً جديداً جعل بمقتضاه للأمراء والأجناد أحد عشر قيرطاً ووزع عشرة منها، وأبقى القيراط الحادي عشر لزيادة إقطاع من يتضح فيها بعد أنه ظلم، وجعل للسلطان أربعة قراريط، وخصصت التسعة الباقية ليكون بها فرقاً جديدة في الجيش. ويبدو أن هذا التقسيم لم يرض الأمراء والأجناد إلا أنهم لم يحتجوا لخوفهم من السلطان لاجين، لكن التذمر والاحتجاج أخذ يعم وينتشر الأمر الذي أدى إلى مصرع السلطان لاجين ونائبه منكوتمر[٣٣] حيث يذكر أبو المحاسن «وكان عمل الروك وتفرقته من أكبر الأسباب في فتك الأمراء بالسلطان لاجين وقتله وقتل نائبه منكوتمر[٣٤].

وكان الروك الثاني قد تم في أيام السلطان الناصر محمد بن قلاوون وكان السبب في هذا الروك الظلم الذي ارتكبه بيبرس الجاشتكير وسلار وهما من

الشخصيات القوية في دولة الناصر محمد، وقد قسمت البلاد نتيجة هـذا الروك على الوجه التالي:

أربعة عشر قيراطاً للأمراء والأجناد والعشرة قراريط الباقيـة للسلطان ومماليكه، وقام السلطان الناصر محمد بتوزيعها شخصياً. ومن سلبيات هذا الروك أن إقطاعات بعض الأمراء والأجناد كانت موزعة في أماكن متباعدة الأمر الذي أدى الى إضعافهم. لكن أنصبة الأمراء والأجناد زادت عما كانوا عليه سابقاً.

ومن الملاحظات العامة التي يمكن إضافتها بهذه المناسبة أن الأراضي المقطعة كانت متفاوته من حيث النوعية، ومراتب الأمراء كانت على مستويات متفاوتة أيضاً. لذلك كان السلطان يوزع الإقطاعات مراعياً الأمور المذكورة فيفرد لنفسه وكبار أمرائه أجود الأراضي ولمن يليهم في المراتب الأراضي المتوسطة الجودة وأما الأراضي المتبقية فكانت من نصيب أجناد الحلقة وغيرهم ممن شملهم الإقطاع،[٣٥] والمعروف أن الإقطاعات المملوكية لم تقتصر على الأراضي الزراعية فقط بل تعدتها الى جميع موارد الدولة بما في ذلك الضرائب والمكوس والمعادن[٣٦]. ومعنى هذا أن المماليك تجاوزوا الحدود والمفاهيم المتعارف عليها بالنسبة للإقطاع عندما أقطعوا المكوس والضرائب وقد عانى منها الناس كثيراً ويظهر هذا في قول المقريزي عن هذه الإقطاعات الجديدة « أحدثها ولاة السوء شيئاً فشيئاً »[٣٧]. حتى الزكاة لم تسلم فقد كانت تقطع حيناً وتضمن حيناً آخر فالوالي خليل بن عرام ضمن زكاة الاسكندرية في عام ١٣٤٥ م[٣٨].

ومن ضمن الملاحظات أيضاً أن المثال الذي كان يمنح للأمير كان يحدد فيه الثلث للأمير والثلثان للأجناد التابعين له[٣٩]، ولم يكن للأمير أو لأحد أتباعه الحق في أن يطلب من الجندي التنازل له عن شيء من إقطاعه إلا برضاه، كما لا يجوز للأمير أن يفصل أحداً من أتباعه أو أجناده دون استشارة نائب السلطنة في القاهرة أولاً، فإن رأى ما يستدعي إخراجه من حاشيته سمح بذلك وعين

من يحل محله[٤٠] في خدمة ذلك الأمير، وهذا إجراء ممتاز لحماية الجند، ولعدم طمع الأمراء في زيادة أنصبتهم على أثر طرد جندي أو أكثر.

هذا وقد تفاوتت مخصصات الأمراء من مستغلات الإقطاعات سنوياً بحسب رتبهم في الجيش وفي خدمة السلطان كالآتي:

أمير مائة من ٨٠,٠٠٠ إلى ٢٠٠,٠٠٠ دينار.
أمير طبلخاناه من ٢٣,٠٠٠ إلى ٣٠,٠٠٠ دينار.
أمير عشرة من ٧٠٠ إلى ٩,٠٠٠ دينار.
أمير خمسة من ٣٠٠٠ دينار فما دون.

وهناك مقدم حلقة يتراوح مدخوله من ٢٥٠ دينار إلى ١٥٠٠ دينار[٤١] هذا بطبيعة الحال الى جانب ما أشرنا اليه من المنح والهدايا والخلع التي كان السلطان يقدمها[٤٢] وهي لا علاقة لها بما يمنحون من أقطاع، ومع مرور الزمن أصبحت هذه المنح والهدايا التزماً على السلطان يصعب تركه.

هذا ويجب أن نلاحظ أنه في حالة وفاة الأمير يصبح إقطاعه شاغراً، فيأمر السلطان بمنح الإقطاع الى أحد المستحقين من الأمراء، فتكتب رقعة في ديوان الجيش لذلك الإقطاع، وترسل الى ديوان الجيش بالقاهرة فيتولى ناظر الجيش عرضها على السلطان، فإن أقرها كتب عليها كلمة يكتب وعلى أثر ذلك تحرر مربعة من ديوان الجيش. وكان للأمراء موظفون لإدارة إقطاعاتهم والإشراف عليها.

وقد ظل نظام الاقطاعات على هذه الصورة المنتظمة حتى كانت أيام أولاد السلطان الناصر محمد بن قلاوون حيث تسرب اليها الفساد والاضطراب، ففي عهد السلطان شعبان بن الناصر ٧٤٦ ـ ٧٤٧ هـ ١٣٤٥ ـ ١٣٤٦ م تنازل كثير من أجناد الحلقة عن إقطاعاتهم للآخرين نظير مال أو مقايضة إقطاع بآخر وذلك بسبب قلة المحصول الناتج من الأرض، وقد نتج عن هذه الظاهرة أن

انتشرت السوقة والارذال في الإقطاعات وصار أجناد الحلقة أكثرهم أصحاب حرف وصناعات وسلبت منهم أراضي أقطاعاتهم (٤٣).

وظلت هذه الأوضاع تسير من سيّيء إلى أسوأ لدرجة أن السلطان الصالح ابن الناصر محمد سمح للأجناد رسمياً ببيع إقطاعاتهم والمقايضة عليها بالأموال في ١٣٥٢م ظهرت طائفة من الموظفين عرفوا باسم المهيسين كانوا يشجعون الجند على بيع إقطاعاتهم وكان المهيس يتقاضى ١٠٪ من ثمن الإقطاع المتنازل عنه(٤٤)، الأمر الذي أدى إلى إضعاف الحلقة وتفككها حتى أصبحت على رأي بولياك « هيكلاً جيشياً جرد من قيمته العسكرية » (٤٥).

أما عن عدد أفراد الأمراء والجيش أو بمعنى أوضح القوات المسلحة فقد أورد المقريزي إحصائية نوردها فيما يلي:

العدد	البيان
٢٤	أمير مائة مقدم ألف
٢٤٠٠	مماليكم بمعدل ١٠٠ لكل أمير
٢٠٠	أمراء طبلخاناه
٨٠٠٠	مماليكهم بمعدل ٤٠ لكل أمير
١٤	كشاف وولاة بالأقاليم
٥٦٠	مماليكم بمعدل ٤٠ لكل أمير
٢٠٠	امراء عشرة
٢٠٠٠	مماليكهم بمعدل ١٠ لكل أمير
٧	ولاة عشرات الأقاليم
٧٠	مماليكهم بمعدل ١٠ لكل أمير
١٣٤٧٥	جنود الأمراء
٢٠	مقدمو المماليك السلطانية
٢٠٠٠	المماليك السلطانية
١٨٠	مقدمو الحلقة
٨٩٣٢	أجناد الحلقة
٢٤	نقباء الوف
١١,١٥٦	المماليك السلطانية وأجناد الحلقة
١٣,٤٧٥	جنود الأمراء
٢٤,٦٣١	مجموع الجند في مصر [٤٦]

هذا ما أورده المقريزي عن جيش مصر ولم يتعرض الى جيوش الشام، لكننا نجد أن خليل ابن شاهين يذكر جيوش الشام ويحمل معها جيوش مصر على الوجه التالي:

٤٢,٠٠٠	الجنود المصرية، مماليك سلطانية وأجناد حلقة ومماليك امراء
١٥,٠٠٠	أجناد حلقة بدمشق ومماليك الكافل والأمراء
٨,٠٠٠	حلقة حلب ومماليك الكافل والأمراء
٥,٠٠٠	حلقة طرابلس ومماليك الكافل والامراء
٢,٠٠٠	حلقة صفد ومماليك الكافل والامراء
١,٠٠٠	حلقة غزة ومماليك الكافل والامراء
٧٣,٠٠٠	حلقة ومماليك بمصر والشام
٦٠,٠٠٠	أجناد النواب بمصر والشام
١٢٣,٠٠٠	مجموع

أما العربان في الأقاليم التابعة لمصر فقد ذكر ابن شاهين أن عددهم بلغ ٣١٤,٠٠٠ وبذلك يصبح عدد أفراد القوات المسلحة المملوكية تبعاً لإحصاء ابن شاهين كما يلي:

٣١٤,٠٠٠	جنود العربان في الأقاليم التابعة لمصر
١٢٣,٠٠٠	حلقة ومماليك بمصر، أجناد النواب بمصر والشام
٤٤٧,٠٠٠	المجموع الكلي للجيش المملوكي(٤٧).

وليس لنا من تعليق على هذه الأرقام إلا أن نذكر أنها لم تبتعد عن الحقيقة بشكل سافر، ذلك لأن المهمات التي أوكلت إليها كانت تطلب هذا الحشد الهائل من الجيش لأنه كان يقاتل على أكثر من جبهة وفي فترة زمنية طويلة، وإذا كان هناك استفسار عن الإمكانات الاقتصادية للدولة وهل هي قوية بالحد الذي يمكن تغطية نفقات هذه القوات نـــقول إن الدولة المملوكية

كانت لديها من الإمكانات الاقتصادية الهائلة فعلاً والتي تستطيع أن تغطي مصاريف هذه القوات بل يزيد عنها، بفضل نشاط السلاطين المماليك واهتمامهم بتنمية موارد الدولة في جميع الميادين[٤٨] بقيت نقطة جديرة بالملاحظة في هذا الموضوع وهي أن المصادر لم توضح لنا السن التي يجب أن يتقاعد فيها الجندي أو الأمير، ولكن في مثل هذه الحالات كانت تراعى قدرة الجندي أو الأمير على العمل إذا وصل أحد أفراد هاتين الفئتين إلى حالة لا تسمح له بمواصلة عمله، ففي هذه الحالة يقدم التماساً إلى السلطان أن يجعله طرخاناً، وكانت الطرخانية تمنح للأمراء والأجناد عند كبر سنهم وعجزهم عن الخدمة[٤٩]، فتصرف لهم حاجياتهم تقديراً لهم على خدماتهم السابقة. وكان الطرخان أحياناً لا يتمتع بإقطاعه القديم بل يعين له السطان مبلغاً من المال كما أشرنا والدليل على ذلك أن السلطان الناصر محمد عندما راك البلاد في عام ٧١٥ هـ جعل جهة المكس إقطاعاً لضعفاء أجناده الذين لا يستطيعون الاستمرار في العمل، وجعل لكل منهم ثلاثة آلاف درهم [٥٠]، على أن إمكانية بقاء الأمير طرخاناً متمتعاً بإقطاعه كانت واردة كما حدث مع الأمير بكتاش الفخري[٥١].

مساكن الجيش

المعروف أن السلطان الصالح نجم الدين أيوب أسكنهم في قلعة الروضة التي بناها لهم، وبعد سقوط الدولة الأيوبية وقيام الدولة المملوكية أمر السلطان عز الدين آيبك بنقل جميع المماليك الى قلعة الجبل، لكن السلطان الظاهر بيبرس بعد أن أقرت له الأمور نراه يهتم بعمارة قلعة الروضة من جديد وأمر بتوزيع أبراجها على الأمراء الذين اتخذوا بيوتهم واصطبلاتهم فيها، وعندما اعتلى المنصور قلاوون عرش البلاد أمر بإعادة المماليك الى قلعة الجبل، وكان يشرف على تربيتهم بنفسه وكان لا يسمح لهم بمغادرة القلعة ليلاً، وفي عهد السلطان الناصر محمد بنيت الطباق بساحة الايوان بالقلعة واتخذها المماليك السلطانية مقراً لهم[٥٢].

ومن الطبيعي ألا تقيم الجيوش المملوكية بصفة عامة في القلعة بل وزعوا على الأقاليم والثغور برسم الجهاد، بالاضافة الى أن كل وال كان في حاجة الى من يعاونه في عمله. أما مماليك الأمراء فكانوا يقيمون مع أمرائهم في مساكنهم في المدن أو في الاقطاعات المقطعة لهم سواء في مصر أو الشام، حيث يقيمون في القلاع والحصون والثغور، أو في معسكرات حول مقر الوالي أو الحاكم.

أما في زمن الحرب فكانوا يتخذون المعسكرات حيث تنصب الخيام بشكل معين ففي الوسط يجب أن تكون خيمة قائد الجيش وتحيط بخيمته خيام كبار القادة ومن يلونهم من الرتبة وهكذا، وقد سمي، المعسكر (الوطاق) واتخذ في مكان بعيد عن ميدان القتال حتى يكون آخر ما يلحق به التخريب[٥٣].

مجلس الحرب «الجيش»

كان يجتمع برئاسة السلطان وأتابك العسكر[٥٤]، ويحضره الخليفة وقضاة المذاهب الأربعة وأمراء المئين، والهدف من الاجتماع يكون التشاور في حالة القتال ووضع الخطط وأخذ الرأي من المهام المنوطة بكل فريق، كما حدث في الاجتماع الذي عقده السلطان سيف الدين قطز عندما تسلم تهديد المغول فقد اجتمع مع كبار الأمراء وكبار القادة وفقهاء وأعيان البلاد[٥٥].

فإذا تم الاتفاق بين المجتمعين أمر بجمع العساكر من كل المناطق ويؤدون يمين الطاعة والولاء للسلطان، ثم توزع عليهم الأموال والسلاح ومعدات القتال من مخازن السلاح المعدة لهذا الغرض، ثم يجري استعراض القوات قبل خروجها، ويعين قائد على رأس الجيش ممن تتوافر فيه الخبرة في القتال وفنون الحرب، والمعروف أن المماليك كانوا يتبعون في قتالهم طريقة الصفوف[٥٦]، ويعاقب كل من يخرج عن الصف، وقد قدم لنا ـ (لاجين الحسامي المعروف بالطرابلسي والمتوفي ٧٣٨هـ) وكان يشغل وظيفة مقدم المماليك السلطانية ـ وصفاً كاملاً ومعلومات وافية عن تشكيلات الجيش المملوكي في

ميدان القتال[٥٧] وذلك في كتابه المعروف «تحفة المجاهدين في العمل بالميادين» وهو مخطوط بالجامعة العربية مصورة تحت رقم ٩٠٢.

هذا وكان الخليفة أحياناً يخرج مع الجيش ليشجع الجنود ويرفع روحهم المعنوية، بالإضافة الى القراء والشعراء، والمقريزي يحدثنا عن خروج السلطان الناصر محمد والخليفة بجانبه لمقابلة المغول في عام ٧٠٢ هـ . «ومشى السلطان والخليفة بجانبه ومعهما القراء يتلون القرآن، والخليفة يقول يا مجاهدين لا تنظروا لسلطانكم قاتلوا عن حريمكم وعن دين نبيكم » [٥٨].

بالإضافة إلى ذلك كانت فرق الموسيقى والطبول ترافق القوات المحاربة بالإضافة إلى فرق التمريض والإسعاف التي كانت ترافق الجيش في ميدان القتال [٥٩].

معاملة الأسرى.

إن معاملة أسرى الحرب من قبل المماليك تدل دلالة واضحة على رقيهم وإنسانيتهم يقول المقريزي [٦٠] «عندما تضع الحرب أوزارها تحصى الغنائم والأسرى فكان كل أمير يستولي على غنيمته عدا الأسلحة فإنها للسلطان، أما الأسرى فكان السلطان يأخذ منهم ما يشاء ويأمر بتوزيع الباقي على الأمراء، أما الأسرى من الرجال فكان السلطان لا يتصرف فيهم إلا بعد أن يعرف مراتبهم، فمن كان له مقام خاص طلبت منه الفدية وأخلى سبيله، ومن كان من العامة وغير قادر على الدفع يرسل الى معتقلات خاصة أو يوزع على الأمراء. وكانت معاملتهم طيبة فنجد أن السلطان الملك العادل كتبغا كان أسيراً ولكنه أصبح سلطاناً، ومن الجدير بالذكر أن بعض الأسرى كانوا يستخدمون في بعض الأعمال كالبناء وغيره.

الهوامش

(١) الخالدي - المقصد الرفيع ص ١٣٦.
(٢) ن م ص.
(٣) القلقشندي - صبح الأعشى ٤/٢١ - ٢٢.
(٤) المقريزي - الخطط ٢/٢٢٣.
(٥) الظاهري - زبدة كشف الممالك ص ١٠٣.
(٦) القلقشندي - صبح الأعشى ٤/١٤ - ١٥.
(٧) ن م ص وانظر D. Ayalon — Studies on The mamluks of Egypt P 204 I.
(٨) الظاهري - ن م ص ١٥ D. Ayalon. Studies 1—2—3.
(٩) أبو المحاسن - النجوم ٨/٢٢. وانظر الخطط تربية المماليك.
(١٠) القلقشندي - ن م ص.
(١١) الظاهري - ن م ص ١١٦.
(١٢) انطوان ضومط - ن م ص ٢٣.
(١٣) ابن الفرات - تاريخ الدول ٨/١٧٩.
(١٤) طرخان - مصر في عصر الجراكسة ص ٢٣٥.
(١٥) القلقشندي - ن م ٤/١٦.
(١٦) ن م ص.
(١٧) ضومط - ن م ص ٥٨.
(١٨) طرخان - ن م ص.
(١٩) علي إبراهيم حسن - ن م ص ٣٤٧.
(٢٠) المثال. وثيقة رسمية تصدر من ديوان الخراج إلى كل جندي أو مملوك مبيناً بها مقدار ما خصه بالفدان من الأرض الزراعية التي يستغلها، وحدودها واسم الإقليم والقرية والحوض الكائنة فيها الأرض التي خصصت له الخطط ١/٨٧.
(٢١) القلقشندي - ن م ٤/٥١.
(٢٢) القلقشندي - ن م ٣/١٥٣.
(٢٣) محمود نديم - الفن الحربي ص ٥٧.
(٢٤) Ayalon. The systeme of payment 1—1 P 55.
ضومط - ن م ص ٤١.
(٢٥) Aylon system of payment P56.
(٢٦) القلقشندي - ن م ٤/٥٦.

(٢٧) ن م ــ ن. ٤/٥٥، أبو المحاسن - النجوم ٤٧٧/٧.
(٢٨) العربي - المماليك ص ١٤١.
(٢٩) المقريزي - الخطط ٢٣٧/٢.
(٣٠) طرخان - النظم الاقطاعية ٩٥.
(٣١ - ٣٢) المقريزي - الخطط ٨٨/١.
(٣٣) محمود نديم - الفن الحربي ٥٩ - ٦٠.
(٣٤) المقريزي - الخطط ٨٨/١.
(٣٥) القلقشندي - ن م ٤٥٨/٨، وانظر المقريزي - الخطط ٨٧/١ وما بعدها روك الأراضي.
(٣٦) المقريزي - الخطط ١٠٦/١ - ١٠٧.
(٣٧) يفصل المقريزي هذا الموضوع تفصيلاً وافياً في الخطط ٨٧/١.
(٣٨) طرخان - النظم ص ٨١.
(٣٩) ضومظ - ص ١١٩ بولياك: الاقطاعية ص ٢٨
(٤٠) المقريزي - الخطط ٢١٦/٢.
(٤١) القلقشندي - ن م ٥٠/٤ بولياك: الإقطاعية ص ٦٨.
(٤٢) Ayalon. System 1-3 P268.
(٤٣) المقريزي - الخطط ٢١٩/٢
(٣٤) ن م ص
(٤٥) بولياك ص ٩٨.
(٤٦) المقريزي - الخطط ٢١٧/٢-٢١٨.
(٤٧) الظاهري - ن م ص ١٠٣ - ١٠٦.
(٤٨) انظر كتابي التاريخ الاقتصادي لدولة المماليك.
(٤٩) القلقشندي - ن م ٤٨١/٣.
(٥٠) المقريزي - الخطط ٩٠/١.
(٥١) ن م ص.
(٥٢) ن م - ن١٨٤/٢٥-١٨٥.
(٥٣) علي إبراهيم حسن - ن م ٣٤٨.
(٥٤) القلقشندي - ن م ١٨/٤.
(٥٥) الدوادار - زبدة الفكرة ورقة ٢٨ - ٢٩، ابن العبري - تاريخ مختصر الدول ٤٨٥ - ٤٨٦، القلقشندي: صبح ٦٣/٨ - ٦٤، الجوهر الثمين ورقة ١١١.
(٥٦) El good — ISLAMIC P 198
(٥٧) لاجين الحسامي - تحفة المجاهدين مخطوط بالجامعة العربية رقم ٩٠٢.
(٥٨) المقريزي - السلوك جـ ١ ق ٩٣٣/٣.
(٥٩) القلقشندي - ن م ٨/٤.
(٦٠) سعاد ماهر - البحرية الاسلامية ١١٩، المقريزي - الخطط ٩٥/٢.

الفصل الثالث

أسلحة الجيش

انقسمت أسلحة الجيش إلى قسمين أساسيين:

الأول الأسلحة البرية.

الثاني الأسلحة البحرية.

وقبل أن نتحدث عن هذه الأسلحة وصناعتها لا بد أن نشير إلى المواد الخام اللازمة لصناعة هذه الأسلحة وسنجد أن بعضها كان محلياً والبعض الآخر كان مستورداً. فالأخشاب مثلاً كانت مصر تستوردها من الخارج إلى جانب الأخشاب المحلية والتي كان أهمها أخشاب السنط واللبخ والجميز والطرقاء أو الأثل، وكان يزرع على ضفاف النيل أو في بساتين وضياع الأمراء وكان حكام المماليك يحتكرون تجارته ويمنعون الناس من التصرف في أعواده، وشددوا الحراسة على حراجه ولا سيما حراج السنط التي كانت تعرف باسم الحراج السلطانية وكانت موزعة في ربوع البلاد في جنوب الدلتا والصعيد وقليوب وكان الأثل يوجد في الجيزة وأسيوط وأخميم وقوص[1] وكان لا يسمح لأي أحد أن يقطع منها إلا ما هو لازم لصناعة مراكب الأسطول، وكان فيها ما تبلغ قيمة العود الواحد مائة دينار[2].

إلا أن هذه الحراج أخذت تقل تدريجياً ففي أواخر القرن الثالث عشر أصبحت كمية أشجار السنط قليلة وبالذات في منطقة الدلتا. وفي القرن

الرابع عشر تناقصت هذه الأخشاب بشكل ملحوظ وقد ذكر هذه الملاحظة المقريزي حيث يقول «وقد بطل هذا جميعه واستولت الأيدي على تلك الأشجار فلم يبق منها شيء البتة ونسي هذا من الديوان»[٣].

ولكن ليس معنى هذا أن الأشجار اللازمة لبعض الصناعات قد انتهى أمرها بل كانت لا تزال موجودة ولو بكميات محدودة في شبه جزيرة سيناء والسويس، حيث حملت الأخشاب من هذه المناطق إلى القاهرة لتدخل في صناعة السفن. أمام هذه الحقيقة وهي تناقص الأخشاب المحلية اضطرت دولة المماليك إلى استيرادها من الخارج فيذكر ابن جبير أن خشب الساج اللازم لصناعة السفن كان يجلب من الهند واليمن [٤]، كما استوردته مصر من الحبشة والسودان[٥]،وكذلك من الأناضول حيث يذكر ابن بطوطه عند كلامه عن مدينة العلايا الواقعة على ساحل الأناضول، أنها كثيرة الخشب، ومنها يحمل إلى الإسكندرية ودمياط ويحمل منهما إلى سائر مصر، كذلك استوردت مصر الأخشاب من البندقية التي كانت تمد مصر بالأخشاب والمواد الأخرى التي تدخل في صناعة السفن وغيرها، فالمماليك كانوا يصرون في جميع معاهداتهم مع الدول الأخرى والإمارات المجاورة على طلب خشب الأرز والصنوبر والحديد والقطران وغير ذلك من المواد اللازمة[٦] لها، مثال ذلك المعاهدة التي عقدت بين الريدراغون ملك اراغون والمنصور قلاوون جاء في المعاهدة «على أن الملك الريدراغون يفسح لأهل بلاده وغيرهم من الفرنج جلب الحديد والبياض والخشب وغير ذلك إلى الثغور الإسلامية» [٧] لكن استيراد المواد الاستراتيجية ومن بينها الأخشاب من أوروبا كانت تجد صعوبة في بعض الأحيان نظراً لموقف البابوية المعارض، وكذلك موقف بعض الحكام المسيحيين فها هو الامبراطور البيزنطي يحتج لدى أمير البندقية ويطلب منه وقف إمداد المسلمين بمثل هذه المواد، فتوقف بيع الخشب إلى مصر اللهم إلا الأخشاب الغير صالحة لبناء السفن والتي لا يتجاوز طول اللوح الواحد خمسة أقدام، وعرضه نصف قدم [٨].

لهذا السبب كان المماليك لا يحاولون الاعتماد على مصدر واحد فنجدهم يبحثون عن الأخشاب وبعض المواد الاخرى في الشمال الإفريقي وفي بلاد الشام كلما اتيحت لهم الفرصة بسبب الوجود الصليبي هناك.

هذا وتذكر المصادر أن المماليك استوردوا الحديد اللازم لصناعة السيوف من جبال لبنانوشمال[٩]الشام وبعض البلدان الأوروبية. ولا يجب أن ننسى هنا أن المماليك اعتمدوا في بعض صناعاتهم العسكرية على بعض المواد الخام الزراعية التي كانت تكثر في مصر مثل القطن والكتان وغيرهما، يذكر ابن الفقيه في كتاب البلدان « ومن عجائب مصر نوع من الكتان اسمه الدقس كانت تصنع منه حبال السفن»[١٠]،كما أنهم استغلوا خام النفط الموجود لديهم إذ يذكر القلقشندي « أن الأسود منه يوجد على ساحل بحر القلزم (الأحمر) ويسيل من أعلى الجبال، ويجمع في حزائن السلاح السلطانية » [١١].

إهتمام السلاطين بتصنيع الأسلحة:

ما دامت المواد الخام متوفرة في الداخل ويمكن استيراد بعض ما يحتاج إليه من الخارج، فإن هذا قد شجع سلاطين المماليك على رعاية حركة التصنيع الحربي، فنجد أن بعضهم يوقف الأراضي لشراء الأسلحة أو شراء المواد اللازمة لصناعتها كما فعلت السلطانة شجر الدر التي أوقفت بلاداً بأكملها في مصر ورصدت خراجها لعملية شراء وتصنيع الأسلحة [١٢]، وكانت الأوامر تصدر إلى الأمراء والأجناد أن يقوموا بإعداد وضع بعض الأسلحة التي تكون مواردها في متناول أيديهم، وفي مثل هذه الحالة كان الازدحام يظهر في أسواق السلاح ويرتفع سعر الحديد كما ترتفع أجرة الحدادين وصناع آلات السلاح في دكاكينهم [١٣]. وتشير الكتب إلى أن السلطان الظاهر بيبرس ومن جاء بعده من السلاطين كانوا يحرصون على تجديد السلاح والعناية به، فها هو برقوق يجدد خزائن السلاح بالإسكندرية والسلطان الغوري يقوم بزيارة للزردخاناه ويستعرض الأسلحة، فرأى أشياء منها

تلفت من الصدأ، فطلب ناظر الزردخاناه ووبخه بالكلام ثم قصد شنقه في ذلك اليوم على باب الزردخاناه لولا شفاعة بعض المقربين، فألزم بإصلاح ما فسد من الأسلحة واستمر في الترسيم بعد ذلك مدة طويلة وهو في الحديد.

كذلك اهتم السلاطين بصناعة السفن لتقوية البحرية المملوكية، فالسلطان الظاهر بيبرس يمنع الناس من التصرف في الأخشاب. وتقدم بعمارة الشواني في ثغري الإسكندرية ودمياط وصار ينزل بنفسه إلى الصناعة بمصر ويرتب ما يجب ترتيبه من عمل الشواني ومصالحها، فبلغت زيادة على أربعين قطعة سوى الحراريق والطرائد فإنها كانت كثيرة (١٤)، ويضيف المقريـزي رواية لطيفة تدل على مبلغ عناية السلطان بيبرس بأسطوله، وهي أنه اضطر يوماً إلى استقبال سفراء ملك صقلية في دار صناعة مصر، فدخلوا عليه وهو جالس بين الأخشاب والصناع، والأمراء تحمل بأنفسها آلات الشواني وهي تمد فراعهم ما شاهدوا (١٥).

كذلك اهتم المنصور قلاوون(١٦) بطرابلس وجعلها نيابة سلطانية يحكمها نائب للسلطان. . وكان من أهم اختصاصاته شد البحر وشد الشواني بموانيء نيابية وهي طرابلس واللاذقية وأنطرسوس (١٧) وجبله وسار كل من الأشرف خليل والناصر محمد ومن جاء بعدهما بإنشاء الأساطيل للدفاع عن سواحل البلاد (١٨) فها هو (يلبغا الخاصكي) وبعد غزوة الإسكندرية يحرص على توفير الأخشاب والحديد والآلات لدور الصناعة في مصر والشام لبناء مائة وخمسين مركباً حربياً ما بين شواني وغربان للغزو، وحمالات وطرائد لحمل الجنود، فكتب إلى نواب الشام بإخراج النجارين إلى الغابات المجاورة لمدينة إنطاكية لقطع ونشر أخشاب الصنوبر وغيرها وإرسالها إلى دور صناعة مصر، كما كتب إلى بلاد الساحل الشامي مثل طرابلس وبيروت وغيرها يأمرها بعمل الشواني والحمالات وجمع الرجال من البحارة والغزاة برسم غزو قبرص.

ولكن للأسف بعد وفاة يلبغا نائب السلطنة في عـام ٧٦٨ هـ توقف العمل في المراكب المذكورة ولم ينزل منها في البحر سوى حمالتين كبيرتين الواحدة

باسم سنقر والثانية باسم قراجا . . . ثم بقيتا بعد ذلك في مساحة بيروت حتى تلفتا، وكذلك تلفتا بقية الشواني التي لم تنزل إلى البحر، وكان قد صرف عليها مال عظيم فذهب ضياعاً لم يستفد منها سوى الحديد بعدما أخذت الناس منه شيئاً كثيراً[١٩].وإذا كان سلاطين المماليك بهذا القدر من النشاط والتفتح وتقدير المسؤولية الملقاة على عاتقهم في مقارعة الأعداء، فإننا نتوقع وجود صناعات لأنواع كثيرة من الأسلحة وبكميات هائلة وذات فعاليات واستعمالات مختلفة.

أنواع الأسلحة:

أنتجت المصانع الحربية المملوكية كميات هـائلة من الأسلحة المختلفـة الأنواع والاستعلامات ونميز منها نوعين هامين هما الأسلحة البرية والأسلحة البحرية، وقد تداخلت استعمالات الأسلحة فمنها ما استخدم أيضاً كسلاح بحري كما سنرى. ومن أهم الأسلحة البرية التي أنتجتها المصانع الحربية ما يلي:

السيف:

عرفته الدولة المملوكية كغيرها من الدول[٢٠]وأنتجته في مصانعها المختلفة واستخدمت منه الطويل والقصير والعريض والـرقيق، كما عـرفت الدولـة المملوكية السيوف المقوسة الطرف ويظهر ذلك واضحاً في رنوك الأمراء [٢١]، هذا كما عرفت السيوف الهندية، واليمانية والخراسانيةوالشامية[٢٢]وكانت مراكز صناعة السيوف المملوكية موزعة بين دمشق والقاهرة وزحلة [٢٣]، وكانت دكاكين السيوفيين في القاهرة تقع في منطقة بين القصرين [٢٤] وكانت للسيوف سقايات شتى وبمختلف المواد، ومن أجودها السقاية بالبورق والملح وملح البول والزرنيخ والنورة على نسب معينة [٢٥].

ويذكر مرضي بن علي أن السيوف الجيدة كانت تصنع من الفولاذ أو من الحديد البرماهي [٢٦]، وله تراكيب عدة، وأفعاله تختلف باختلاف تراكيبه، وخواصه تتفاضل بتفاضل ما يمزج به من أخلاطه، ويذكر مرضي بن علي وصفاً لصناعة الفولاذ فيقول «يؤخذ من الحديد النرماهن وإن كان من رؤوس المسامير القديمة كان أجود، فيلقي عليها وزن سبعة عشر درهماً إهليلج كابلي وكذلك يضاف إليه البليلج بنفس الكمية ويوضع الحديد في قصعة ويغسل بالماء والملح غسلاً جيداً ثم يلوث بذلك الدواء ويصَّير في بوتقة ويذر عليه درهم ونصف درهم مغنيسيا مكسر، وينفخ عليه في المسبك ثم يذوب ويجمع بيضة وذلك في أيام عدة ثم يبرد ويعمل منه سيفاً فإنه سم قاتل [٢٧].

ومن أنواع السقايات التي استخدمت في سقاية السيوف نذكر واحدة على سبيل المثال لا الحصر.

«تأخذ الكرفس الجبلي فتدقه وتأخذ عصيره، وعصارة الأشنان الفارسي وعصارة شجر العوسج ودردي الخمر وزبد البحر ونشادر وذراريح وعصارة شجر البنج الرطب، يسحق منها ما كان يابساً ويخلط بهذه المياه ويصَّير في قارورة ويسد رأسها ويدفن في الزبل أربعين يوماً حتى يتحلل فإذا كمل خذ لبداً وانقعه في بول عتيق ثلاثة أيام ثم أخرجه من البول وجففه في الظل ثم روه من هذا الماء، واحم السيف واسقه باللبد فإذا شرب فبرده واستره من الغبار فإنه يقطع كل شيء وإذا عمل منشار وسقى به قطع الزجاج كما تقطع المنشار الخشب [٢٨].

الرماح:

وهي من ضمن الأسلحة التي أنتجتها المصانع الحربية المملوكية، فدولة المماالك كانت متفوقة على غيرها في هذه الصناعة [٢٩]، وكانت الرماح تصنع من القنا، وهو قصب مسدود من الداخل ويستورد من الهند ومن القنا ما

يصنع من خشب الزان[٣٠]، ولرأس الرمح أشكال مختلفة، ويعتبر الرمح من أقدم الأسلحة البيضاء[٣١]، والرماح على أنواع مختلفة ومنها ما يركب فيها السهام، فإذا طعن به الفارس ولم يصل إلى خصمه أو عاقه عنه عائق أفلت القوس التي في سافلته فخرج السهم من سنان الرمح فيصيب خصمه قبل أن يصل إليه[٣٢].

القوس:

ويدخل ضمن تجهيزات العساكر الشامية والمصرية، وهو قضيب من الخشب شد طرفاه بخيط أقصر من القضيب فيقوسه، والسهم قطعة مدببة من الحديد ذات نصول مثلثة الأركان[٣٣].

وهناك طريقتان لاستعمال القسي إما باليد وإما بالقدم، وتصنع الأقواس من خشب الصنوبر، وقد توصل المسلمون في هذه الفترة إلى صناعة ضروب من المجانيق لرمي السهام توضع في الواحد منها عدة سهام[٣٤]، ويقرر ابن منكلي إن أصلح السهام ما عملت من خشب القراصيا[٣٥].

كما كانت هناك أقواس لقذف البندق الذي يشتعل بمجرد رميه في الهواء ويتركب من «شحوم كلاب البحر وكبريت أسود ولبن التين البري ونوره لم تنطفىء وصمغ البن»، يخلط الجميع ويبندق، فإذا أريد رميها تمسح بنفط مصعد مطبوخ ويرش عليها كبريت مسحوق ثم تقذف[٣٦]، ويذكر المقريزي أن بالقاهرة صناعاً للقسي كثيرين.

ومن أشهر أنواع القسي ما يسمى قوس الزيار وهو أشدها رمياً وأعظمها جرماً ويحتاج إيثاره إلى عدة رجال وينصب على الأبراج وما شاكلها، واستعمال هذا النوع يحتاج إلى ذكاء وفطنة وخبرة وتجربة طويلة[٣٧]، وهناك قوس العقار والجرخ وقسي الرجل وهناك القسي العربية وهي قسي اليد

المعلومة وقوس الحسبان، ويرمي في مجراها الأربعة سهام والخمسة والأقل والأكثر فإذا دفعها الوتر خرجت كالجراد المنتشر في دفعة واحدة (٣٨).

وهناك طريقة لقذف سهام كثيرة عن طريق رجل واحد وصفتها أن تعمل أربع قسي جرخ في برج له أربعة جهات ينصب في كل جهة منها قوساً لكل منها مجراة تنتهي الأربع مجاري إلى قفل واحد وكل مجراة فيها ثلاث سهام أو أربعة، ويرمى بهذه القسي الأربعة رجل واحد فيخرج في دفعة واحدة ستة عشر سهمًا ، وإن كان البرج مسدساً جعل في كل جهة قوس على تلك الصفة فيكون الخارج منها أربعة وعشرون سهمًا وإن كان مثمناً كان الخارج منها إثنان وثلاثون سهمًا وهكذا تتضاعف القسي والنشاب بتضاعف الجهات، ويرمي بجميع ذلك رجل واحد فيظن أن في البرج رجالاً بعدد ذلك النشاب (٣٩).

هذا وقد أخرجت المصانع الحربية المملوكية الجروخ(٤٠) واستخدمتها قواتهم العسكرية وهي عبارة عن آلة حربية لرمي السهام والنفط والحجارة ويقال لمستخدمها من الجند الجرخى(٤١) - وهو ما نسميه بالسهم النارى(٤٢) كذلك استخدم الجيش المملوكي الدبوس وهو عمود من حديد له رأس مقوسة ذات أضلاع تشبه الإبرة، وكانت تصنع من عود طوله حوالي قدمين من الخشب الغليظ وفي أحد طرفيه رأس من الحديد قطرها ثلاث بوصات تقريباً (٤٣). أما العمود فلا يصنع إلا من الحديد (٤٤)، والنكاية به أقوى من نكاية الدبوس وما شابهه من الآلات (٤٥).

كما أنتجت المصانع المملوكية أنواعاً أخرى من الأسلحة التي استخدمها الجيش في معاركه منها المقلاع(٤٦) وكان يصنع من القماش أو الجلد ويستعان فيها بقوة الطرد المركزية، وذلك بجعل القذف في رميها بين حبلين يجمعان في يد القاذف من الطرف الثاني فيديرها ثم يخلي أحد الطرفين فينبعث المقذوف بعيداً (٤٧) . هذا وقد استخدمت أيضاً الطبر أو البلطة وهي أشبه بالفأس

ولها رأس نصف مستدير، ويركب في قضيب من حديد أو خشب متين، وتحفر عليه النقوش الإسلامية أو العبارت الدينية [٤٨]، كذلك صنعوا الجنبية، ولها أشكال منوعة، ولكنهم استوردوا منها صناعات يمنية وإيرانية وهندية، كذلك صنعوا السكاكين من جديد معين تضاف إليه بعض الأخلاط الكيميائية [٤٩]، وهي على أنواع مختلفة، وقد جرت العادة أن توزع السكاكين على الناس في عيد النحر من الزردخاناه على يد أحد الزردكاشية [٥٠].

أسلحة شخصية وقائية:

وما دمنا قد تحدثنا عن صناعات الأسلحة الشخصية الهجومية، فلا بد أن نذكر هنا بأن المصانع التي أنتجت تلك الأسلحة لا بد لها وأن تنتج أنواعاً أخرى من الأسلحة الوقائية التي يستخدمها الفارس في المعركة لحماية نفسه وأهمها الخوذة والتجفاف والترس والطارقة والدرع.

أما الخوذة:

فهي تلبس على الرأس [٥١]، ومنها الفارسية «خوذ» ومنها العربية « البيض » لأن هذه الأخيرة على شكل بيضة وهي تصنع من الجلد أو الحديد، والمغفر يغطي الوجه كاملاً فلا يظهر منه إلا العينان، ويدلى من وراء الظهر مشدوداً بالخوذة ويسمى رفرف الدرع وتمتد أحياناً على الأذرع [٥٢] وما زالت بعض المتاحف تحتفظ بطائفة كبيرة من خوذات السلاطين والأمراء.

أما التجفاف:

الذي أنتجته المصانع الحربية فكان يلبسه المحارب ويتقي به كأنه درع، كما صنعوا القفاز من جلد البقر أو الملط [٥٣] (وهو حيوان يعيش في الصحاري) وكذلك الجوشن: وهو عبارة عن صدر بغير ظهر، وكذلك المضمضم وهي خوذة مسدولة على قفا المحارب وأذنيه لوقاية العنق، وقد صنعوا للفارس جوارب طويلة تكسو الساق يطلق عليها أسم رانات [٥٤]،

وطماقات للأرجل يطلق عليها اسم ساق الموزة أو كلسات الزرد، وكذلك أحذية برقبة طويلة «خفاً» مزودة بمهماز (٥٥).

الترس:

هناك نوع من التروس يسمى الطارقة وتشبه العباءة، وكان يستخدمها المقاتل للوقاية ومنها أيضاً الجنوبات وهي كالطوارق، إلا أنها غير محدودة الأواخر بل مقطوعة لتقف على الأرض ويحتمي بها الفرسان أثناء التقدم من النبال ويكون للصف كالحصن المانع من النبال. وعلى العموم فقد أخرجت الحربية المملوكية أصنافاً كثيرة من التروس (٥٦) ولها أشكال متباينة فمنها المدور اللطيف ومنها الواسع التدوير ومنها المستطيل في تدويره ومنها المسطح والمحفر الوسط والمقبب والمقبب المنحني الأطراف(٥٧)، وقد صنعت هذه التروس من الحديد أو من الخشب والعقب الشديد، وهناك بعض الصناع الذين كسوا الخشب الكيمخت المختار، ومنهم من كسا الجلود وغلاها بالدهن والأصباغ، ومنهم من استعملها من جلود الزراف واستغنى بها عن الخشب المدهون ومنهم من اتخذها من جلود اللمط، ومنهم من ركبها من قضبان ولف عليها القطن المغزول (٥٨)، وقد ذكر مرضي بن علي نوع من التراس تمنع من سائر السهام وجميع ما يضرب بها من آلات الأضرار ولا يؤثر فيها شيء من السلاح ولا سهام قسي الزيار، ويذكر الكاتب المواد التي تصنع منها هذه التروس ومن أهمها الطين والجلود والفراء، والدم أو الطحال المدقوق، والرخام المدقوق وغراء السمك.. والزجاج المسحوق وبرادة الشابرقان (حديد الأسطام) ونخالة الخشب، ويمكن تلبيس مثل هذه التروس بصفائح الرصاص (٥٩).

وقد أدخل تطوير على عمل التروس بوضع قوس في باطن الترس، فحامل الترس يقارع خصمه بالسيف فإذا لاح انكشاف منه أفلت القوس فخرج السهم الذي في وسطه فيصيب الخصم من حيث لا يعلم(٦٠).

الدروع:

عرف المماليك ثلاثة أنواع فصنعوها واستعملوها بنسب متفاوتة وهي قميص الزرد والدرع ذو الرقائق المعدنية والبريجاندين. وكان أكثر الأنواع شيوعاً القميص المصنوع من الزرد الخالص، وظل مستخدماً حتى نهاية العصر المملوكي ويبدو أنهم كانوا يرتدون قميصاً واحداً أو اثنين معاً قصاراً أو طوالاً، وكانت هذه الدروع أحياناً تغطي ساقي الفارس [٦١] وكانت حلقات الزرد تشد بعضها بعضاً عن طريق مسامير من المعدن تدخل رأساً من ناحية أخرى، [٦٢]،وكانت قمصان الزرد تقوى برقائق مستطيلة من المعدن تتداخل أطرافها بعضها تحت بعض ويطلق عليها اسم جوشن وقد كثر استخدامها في العصر المملوكي.

أما الدروع المصنوعة من المعدن الخالص فإنها لم تستخدم بكثرة عند المماليك نظراً لثقلها [٦٣]، وأنها تعيق حركة الفارس المرنة وتبطىء سرعة فرسه، أما شيوع استخدام الزرد عند المماليك البحرية فكان أساسه خفة الوزن مع كفاءته التامة في وقاية لابسة من ضربات العدو مهما كانت قوتها، أما النوع الثالث من الدروع فقد استخدم كثيراً في العصر المملوكي المبكر [٦٤]، وأخرجته مصانعهم بأعداد كبيرة، وهو عبارة عن حلة شائعة الاستعمال في تلك الأيام، وكان يلبسها السلاطين أحياناً، وكان لكل من هذه الدروع القصيرة منها والطويلة كسوة من الكتان [٦٥] فضلاً عن كونه محشواً بنفايات الحرير وشعرب الأرانب [٦٥].

بالإضافة إلى ما سبق من الأسلحة، فقد أنتجت المصانع الحربية المملوكية أسلحة أخرى استخدمها الجيش في معاركه منها الحسك وهي مثلثات أو مسدسات وهي قطع من الحديد ولها أطراف حادة ولها عدة شعب فإذاء طرحت على الأرض بقي هناك شعبة أو اثنتان مرفوعتان عن الأرض وكانت المثلثات أو المسدسات ترمي حول المعسكرات لعرقلة خيول العدو حين تقدمها [٦٦]. ولعمري أن هذه أشبه بفكرة الألغام

التي تنصب حول معسكرات الجيش في أيامنا هذه للحفاظ عليها، وكان لهذا الحسك شأن خطير في كل الحروب القديمة والوسيطة [٦٧] وأحياناً تحدد شوكتها وتبرد وتسقى بسقاية قاتلة، فإذا وطئتها الخيل أهلكتها، وترمى أحياناً في طريق القوات المعادية[٦٨]. كذلك وفرت المصانع الحربية لقواتها الأعداد الهائلة من النبال أو الأسهم، والسهم عبارة عن عود رفيع من شجر صلب في طول الذراع تقريباً يأخذه الصانع فينحته ويسويه ثم يفرض فيه فروضاً دائرية ليركب فيها الريش ويشده عليها بالجلد المتين أو يلصقه بالفراء ويربطه، ثم يركب في قمته نصلاً من حديد مدبب له سنتان في عكس اتجاهه، يجعلانه صعب الإخراج إذا غرز في الجسم [٦٩]، كذلك صنعوا الكلاليب وهي سلاسل أو حبال أو سلالم من الحبال تحوي في رؤوسها خطاطيف تشبه ما يستخدم لدى بائعي اللحوم وكان المهاجمون يلقونها على الأسوار لتسلقها أو على مراكب الأعداء فيوقفونها ويشدونها إليهم ثم ينصبون عليها ألواحاً كالجسور ويمرون فوقها ليقاتلوا جند العدو في مراكبهم[٧٠].

الأسلحة الثقيلة والفتاكة:

لم تقتصر المصانع الحربية المملوكية على إنتاج الأسلحة الخفيفة ولكنها تعدتها إلى صناعة الأسلحة الثقيلة والفتاكة التي كان لها عامل الحسم في معظم المعارك، فانتجوا برج الحصار والدبابة والعرادة والمجانيق والمدافع والنار الإغريقية والغازات السامة والقنابل الزمنية والحارقة ومختلف أنواع المقذوفات.

أما برج الحصار:

كان الهدف من صناعته أن يكون سترة للرجال الذين يستعضد بهم في جر المجانيق وما شاكله من أن يرموا بحجارة منجنيق يقابله فيحمل عنهم مضرتها، ويكفيهم سوء إصابتها، فإذا وقع عليها الحجر يفرقه[٧١]، وهو يصنع من الخشب الجيد مثل السنط والصنوبر[٧٢]، ويغطى بالحديد والجلد،

وهو يمكن الجيش من الاقتراب من حصون العدو والأسوار لاقتحامها وفي معظم الأحيان يجر البرج على عجلات خشبية أو حديدية أو يدفع على أسطوانات [٧٣]، ويتألف البرج من عدة أدوار بعضها فوق بعض [٧٤]، ويوصل إليها بدرج من الداخل وينتهي البرج بقنطرة خشبية يمكن إلقاؤها على جدران الحصن أو السور ليمر عليها المقاتلون عند اقتحامهم لحصون العدو، ويتسع سطحها بدرجة تكفي لنصب المنجنيق [٧٥].

أما الدبابة:

فيستعان بها في نقب الأسوار وما يشابهها وهي آلة ساترة من آلات الحرب يدخل فيها المقاتلون ويتجهون إلى السور لنقبه [٧٦]، وهي برج متحرك له أحياناً أربعة طوابق أولها من الخشب وثانيها من الرصاص وثالثها من الحديد ورابعها من النحاس الأصفر ويتحرك هذا على عجلات لنقب الحصون وتسلق الأسوار وهي في هذا تؤدي وظيفة البرج تماماً، وكانت الدبابات تؤثر تأثيرها المطلوب، وهي تقذف الحجارة أو كرات النار الملتهبة أو النبال، وكان القادة يخصصون بعض الجنود للسير أمام وخلف الدبابة لتسوية طريقها وإزالة الموانع التي يضعها العدو وكانوا في بعض الأحيان ينقلونها بالشواني الحربية من مكان لآخر [٧٧].

أما العرادة:

فهي آلة أصغر من المنجنيق تقذف الحجارة على مسافات طويلة، ويرمى بها النفط المشتعل في اتجاه الأعداء وتوضع في الحراقة [٧٨].

أما الكبش:

فهو آلة من خشب ملبس بصفائح من الحديد ولها من تحتها عجل يتحرك من داخلها [٧٩] وتضرب الحائط فينهدم، وأصل الكبش دبابة بعمود غليظ معلق بحبل تجري على بكر معلقة بسقف الدبابة لسهولة جرها [٨٠].

وهناك سلاح مضاد للزحافات:

فقد اعتاد الفرنج على استخدام زحافات للوصول إلى الأسوار ويعبروا بها الخنادق، وهي تمشي على بكر يحركها من هو بداخلها، وهي مصنوعة من الخشب القرو الملبس بصفائح الحديد وجلود الجمال والبقر والقطن المبلل واللبد حماية لها من رمي النار كي تستطيع أن تصل إلى السور أو الخندق فيقوم من بداخلها بردم الخندق أو نقب السور، وكانت هذه الزحافات تعرف عند المغاربة باسم القطوس أي القط لأن مشيتها كمشي القط ولاتقاء شرها أمر سيف الدين الأكز والي الإسكندرية سنة ٧٦٧ - ٧٦٨ هـ بعمل سلاح مضاد لهذه الزحافة. فأحضر الحجارة الصوانية المرشوق بها أكف الحديد المثنية الأصابع، والمفرزة فيها النصول المحدودة الأطراف وتعليقها بسرياقات من القنب في البكر في أعلى أبواب الإسكندرية، فإذا أرخيت هذه الآلة على الزحافة كسرتها ورفعت من بداخلها حياً أو ميتاً (٨١).

المجانيق:

«وهي مختلفة الأصناف متباينة التراكيب فمنها العربي وهو أيقن مصنوعاتها، وأوثق معمولاتها ومنها التركي والفرنجي» ويذكر مرضي بن علي أن للرمي البعيد قواعد وللرمي القريب قواعد (٨٢). ومنها المجانيق الكبيرة والصغيرة، ويقذف بها على الأعداء من مسافات مختلفة الأبعاد طبقاً لأشكال وأنواع المجانيق، ويحتاج المنجنيق في تركيبه إلى ثماني وعشرين قطعة من الخشب (٨٣)، والمنجنيق آلة خشبية لها دفتان قائمتان بينهما سهم طويل رأسه ثقيل وذنبه خفيف (٨٤)، وفيه تجعل كفة المنجنيق التي يجعل فيها الحجر يجذب حتى ترتفع أسافله إلى أعاليه ثم يرسل فيرتفع وذنبه الذي فيه الكفة فيخرج الحجر منه فما أصاب شيئاً إلا أهلكه.

ولم يكن يرمى عنه الحجارة فقط بل كان يقذف منه حديد وقدر فخارية

أو زجاجات تملأ بالنفط والزرنيخ والأفيون وترمى على الأعداء فيقوم مقام الغازات الخانقة وكذلك زجاجات حارقة تحتوي على مواد حارقة (٨٥)، وهناك مجانيق يقذف من فوقها قدور مملوءة بالأفاعي والعقارب ورمم الحيوانات الميتة والقاذورات (٨٦). هذا وكانت المجانيق تحمل على الإبل بعد فصل أجزائها عن بعضها البعض الآخر ثم تركب عند الحصار (٨٧)، وهناك مجانيق هائلة كانت تحمل على مائة عجل (٨٨).

ويذكر مرضي بن علي أن أفضل السهام التي يمكن أن يقذف بها تصنع من خشب القراصيا، وإن عدم فيكون من خشب قريب العقد متوسط كالأرز وما شاكله (٨٩). وتذكر بعض المصادر أن هناك مجانيق تقذف سهاماً ضخمة هائلة الحجم يتراوح طول السهم من ٦٠ ـ ١٨٠ سم ووزنه من ٢ ـ ٣ كغ (٩٠)، والنشاب الذي يرمى بالمنجنيق تارة يكون مرسماً بالنار واللازقات وتارة يكون بلا رسم (٩١).

صناعة الحديد

وهي من الصناعات الرئيسية والهامة في العصر المملوكي ولدينا وصفاً هاماً للكيفية التي كانت تتم فيها عملية صناعة الحديد في المصانع الحربية المملوكية تؤخذ كمية معينة من برادة الحديد ويوضع عليها كمية مساوية من ورق الخروع اليابس ومثله تنكار ـ وهو نوع من أنواع الملح فيه مرارة وهو حار يابس ـ فإنه يذوبه، ثم خذ من عظام السمك غير المشوي واللؤلؤ والتوتيا ونواة التمر وحب الخروع أجزاء متساوية واسحقها جميعاً والقي عليها كلها ثلاث أوراق وضعها على النار أربع ساعات ثم اصنع منه ما شئت (٩٢).

أما عن كيفية صناعة الحديد المغناطيسي فهناك العديد من الطرق المختلفة لصناعته (٩٣)، ولكي لا يصدأ الحديد أو أي نوع من أنواع السلاح فيجوز طليه بمخلوط من صمغ الصنوبر، وصمغ الخشب والمصطكي والزفت بنسب معينة فإنه لا يصدأ أبداً (٩٤).

النار الإغريقية :

وهي من الأسلحة الهامة والفتاكة في نفس الوقت واستخدمت في فترة مبكرة (٩٥) كعامل مؤثر في الحروب، عرفها المماليك واستخدموها وكانت تتركب من مزيج من النفط والزيت والكبريت المجمد بنوع من الصمغ القابل للاشتعال، وكان هذا المزيج يوضع في أنابيب من النحاس لها فم طويل يوقد منها، وفي مؤخرتها قوس يدفعها بقوة الضغط إلى الأمام، وكانت تلك الأنابيب النحاسية توضع بكميات كبيرة في اسطوانة هائلة مستديرة، وتلقى في موضع المنجنيق، ثم تقذف على العدو فتصليه ناراً حامية (٩٦)، وقد أدخل المسلمون الكثير من التحسينات على النار الإغريقية سواء من ناحية التركيب أو من ناحية الاستعمال، فمن حيث التركيب أخذوا يضيفون إليها بعض الصموغ التي تزيد اشتعالها أواراً وأما من حيث الاستعمال فقد أخذوا يزودون بها أساطيلهم على نطاق واسع (٩٧).

مكاحل البارود والمدافع :

هناك دلائل تاريخية على استخدام المماليك للمدافع، فقد استخدمها يلبغا الناصري عام ٧٦٨ هـ ضد أعدائه (٩٨)، إذ استخدم مدفعاً مصنوعاً من النحاس والحديد(٩٩)،وتذكر المصادر أنهم استخدموها في فترة مبكرة من تاريخهم. بدليل أن بعض سلاطين المماليك كانوا يقومون بالإشراف على صناعة المكاحل بالقاهرة وكذلك الإشراف على تجربتها (١٠٠)، وهذا دليل على أن هناك تجارب سابقة قد جرت لهذا الاختراع (١٠١) ويؤكد على ذلك ما أورده العمري في كتابه المصطلح الشريف الذي فرغ من تدوينه عام ٧٤١ هـ من أن مكاحل البارود كانت من الأسلحة المستخدمة عند الجيش المملوكي. كما ذكر أبو شامة في كتابه (الذيل على الروضتين)(١٠٢) من أن نجاح المصريين في معركتهم ضد المغول راجع إلى استخدام النفط، والمعروف أن كلمة نفط كانت مستعملة لتعني البارود طوال العصر المملوكي (١٠٣)، وهناك من يؤكد

على استخدام المكاحل (المدافع) عند المماليك قبل معركة عين جالوت اعتماداً على ما أورده جوانفيل في حديثه عن معركة المنصورة، ومن الجدير بالذكر أن جوانفيل كان مشاركاً بصفة رسمية في هذه المعركة، وقد ساد الاعتقاد حتى وقت قريب أن جوانفيل في حديثه عن المعركة تعرض لبعض الأسلحة وذكر منها النار الإغريقية، إلا أن الدارس لحديث جوانفيل بدقة سوف يدرك بأن المقصود لم يكن النار الإغريقية، وإنما هو يقصد المدفع، ويرجع السبب في ذكر جوانفيل لكلمة النار الإغريقية بدل المكاحل لأنه يعرف الأولى ويجهل الثانية جهلاً تاماً كما يستدل من النص: «في ذات ليلة كنا نحرس الأبراج، حيث أحضر المسلمون آلة لم يستعملوها من قبل يقذفوننا منها بشيء ملأ قلوبنا بالدهشة والرعب... نار مستقيمة كأنها أسطوانة كبيرة وذيلها من خلفها مثل الحراب الطويلة، ودويها يشبه الرعد، وكأنها جارح يشق الهواء، لها نور ساطع من جراء عظيم انتشار اللهب الذي يحدث هذا الضوء حتى أنك ترى كل ما في المعسكر كما لو كان في وضح النهار، وقد رمى علينا المسلمون هذه النار في تلك الليلة ثلاث مرات من الآلات الكبيرة، وأربع مرات من القسي العريضة، وكان ملكنا القديس لويس كلما سمعهم يقذفون النار الإغريقية ينهض من فراشه ويبسط يديه إلى منقذنا ويقول باكياً: «أيها السيد العظيم إحفظ لي رجالي»[١٠٤]. ويستطرد جوانفيل في وصف القذيفة النارية التي شهدها تسقط على معسكرهم... إنها أشبه ببرميل مشتعل من حامض النبيذ في ذيله عود نار طول عود المزراق العظيم الاشتعال وأحدثت هذه القذيفة بالذات دوياً هائلاً مثل دوي الرعد، وتراءت كـــأنها طائر في الهواء، وأضاءت جوانب المعسكر حتى غدا الليل فيه كالنهار»[١٠٥].

وبتحليل النص يتضح لنا أن الآلة التي استخدمت كانت المدفع وليس النار الإغريقية بدليل:

أولاً ـ أن النص يذكر «آلة لم يستعملها المسلمـون من قبل» والنـار الإغريقية معروفة لدى المسلمين قبل العصر المملوكي بكثير.

ثانياً ـ تشبيه الكاتب لنوعية تأثير السلاح في الضرب حيث قال: «نار مستقيمة وكأنها أسطوانة كبيرة وذيولها من خلفها مثل الحراب الطويلة، ودويها يشبه الرعد وكأنها جارح يشق الهواء ولها نور ساطع جداً من جراء عظيم انتشار اللهب الذي يحدث الضوء. . .» الخ وكل هذه لا تنتج إلا من تأثير دانات المدفعية.

ثالثاً ـ ومما يدل ويؤكد أنه كان المدفع أو المكحل وأنه ليس بارودا مجهزاً للضرب عنه من القسي العريضة (السهام) أنه قال «وقد رمى علينا المسلمون هذه النار في تلك الليلة ثلاث مرات من الآلات الكبيرة» ويقصد هنا من هذه الآلة الجديدة وهي المدفع وليس المنجنيق أو السهام النارية، ثم يستطرد النص واصفاً تصرف الملك لويس. . . كلما سمعهم يقذفون النار الإغريقية، وذلك لعدم علم المؤلف بنوعية الآلة الجديدة فأطلق عليها النار الإغريقية كما كان معروفاً في ذلك الوقت ولو وجد لها إسماً أخر لأطلقها عليها ولكنه وجد هذا الاسم أقرب رمز لما تحدثه هذه الآلة الجديدة من آثار.

رابعاً ـ إن وصف جوانفيل للقذيفة لا يمكن أن ينطبق على وصف النار الإغريقية سواء حدد هذه القذيفة عن باقي القذائف بكلمة خصصها بحدوثها دوياً هائلاً ثم وصفه لها بأنها أشبه ببرميل مشتعل، وما يحدثه هذا البرميل من إنفجار شديد نتيجة ضغط شديد ناتج عن الغازات المضغوطة في البرميل نتيجة الاشتعال وهذا لا يحدث إلا نتيجة إنفجار وأنه من دانات المدفعية. ويرى العقيد محمود نديم بأن هذا يعتبر دليلاً كافياً وواضحاً لاستخدام المماليك المدافع منذ فترة مبكرة [١٠٦]، واحتفظ به كسلاح سري استخدم أيضاً في معركة عين جالوت واستمر الاهتمام به حتى عصر السلاطين الجراكسة فها هو السلطان الغوري ينزل في رجب ٩١٣ هـ/ ١٥٠٧ م إلى قبة الهوى خلف القلعة حيث جربوا قذافة مكاحل نحاسية [١٠٧].

وكانت هذه المكاحل على نوعين، نوع يحمل على عجل تتم تجربته بقبة

الهوى ونوع يحمل على السفن، وكانت تجربته تتم على سفن نهر النيل عند طره [١٠٨]، ويصف القلقشندي المدافع فيقول: «مكاحل البارود هي المدافع التي ترمى عنها بالنفط وحالها تختلف فبعضها يرمى عنه بأسهم عظام تكاد تخرق الحجر وبعضها يرمى عنه ببندق من حديد زنة عشرة أرطال بالمصري إلى ما يزيد على مائة رطل، وقد رأيت بالإسكندرية في الدولة الأشرفية شعبان في نيابة الأمير صلاح الدين بن عرام مدفعاً قد صنع من نحاس ورصاص وقيد بأطراف الحديد، رمي عنه من الميدان ببندقة من حديد عظيمة محماة، فوقعت في بحر السلسلة خارج باب البحر وهي مسافة بعيدة» [١٠٩]. هذا وقد تطورت صناعة المدافع في الفترة اللاحقة.

أما عن تركيب قنبلة المدفع فقد ذكر نجم الدين حسن الرماح في كتابه الفروسية [١١٠] أنها تتركب من «الملح والكبريت المسحوق ورماد الفحم والبرادة والنشادر والزرنيخ الأحمر والتيلة الزرقاء. . .

يوضع البارود في طاجن وإن القنبلة لا تستعمل إلا إذا وصلتها النار».
وكان يتحدث عنها وكأنها سلاح عادي ومعروف، كذلك يذكر أربنغا الزردكاش في كتابه «الأنيق في المنجنيق» عن تركيبات الذخيرة أشياء غريبة مدهشة بحيث تكون مطابقة تقريباً بالدانات المدفعية في الوقت الحاضر حيث يذكر ضمن تركيب مواد سلاح النفط ملح البارود وليس البترول [١١١]
أما عن سبب ندرة ذكرها في المصادر المعاصرة فيرجع أساساً إلى السرية والأمن كسلاح إستراتيجي جديد الاختراع، إلى جانب هذا إن المماليك كانوا في قتالهم قد تمسكوا باستخدام السلاح الذي استخدمه الرسول ﷺ، وهو الجهاد في سبيل الله بالسيف الأمر الذي جعلهم يتركون استعمالها إلى طبقة أولاد الناس ونضيف إلى ما سبق عن سبب عدم ذكر المصادر لهذا السلاح وعن عدم استخدامها بشكل واسع النطاق.

إن صناعة المكاحل هذه ربما تكون باهظة التكاليف وإنهم ليسوا في حاجة

إليها ما داموا قادرين على قهر أعدائهم بما لديهم من أسلحة مختلفة متوافرة في مخازنهم وهي في نفس الوقت أقل كلفة.

كذلك كان لانحسار الخطر المغولي وانتهاء الخطر الصليبي ـ على الأقل من وجهة نظرهم ـ كانا عاملاً من عوامل عدم الاندفاع نحو تطوير مثل هذه المكاحل والإكثار منها واعتقادهم بأن الخطر الأوروبي قد تضاءل إلى حد الزوال بدليل طبيعة المعاهدات التي وقعت بين دولة المماليك وبعض البلدان الأوروبية نذكر منها بعض النصوص على سبيل الاستشهاد فقط.

جاء في معاهدة بين المماليك وبين الريدراغون ملك أراغون وأخيه ملك صقلية «أنه متى طلب البابا بروما وملوك الفرنج والروم والتتر وغيرهم من الملك دون حاكم أو من أخويه أو من صهريه أو من بلادهم إنجاداً أو معاونة بخياله أو رجاله أو مال أو مراكب أو شوان أو سلاح لا يوافقهم على شيء من ذلك، لا في سر ولا جهر ولا يعين أحداً منهم ولا يوافقه على ذلك، ومتى أطلعوا على أحد منهم يريد قصد بلاد السلطان لمحاربته يعرف السلطان الأشرف خليل بخبرهم وبالجهة التي اتفقوا على قصدها في أقرب وقت... ولا يخفيه شيئاً من ذلك» (١١٢).

هذا نص من نصوص معاهدة وقعت مع السلطان الأشرف خليل ولم يمض على سقوط عكا آخر المعاقل الصليبية غير فترة قصيرة جداً، فرغم أنه كان يتوقع قيام أوروبا بعمل ما ضده وهذا أمر طبيعي إلا أن شيئاً من ذلك لم يحدث، بل العكس هو الذي حدث إذ جاء ملوك أوروبا ووقعوا إتفاقية تدل على أن أوروبا كانت راغبة ومتحمسة لمصادقة المماليك والوقوف إلى جانبهم ضد أبناء ملتهم.

وجاء في فقرة أخرى من المعاهدة:

«إن الملك دون حاكم هو وأخوه ـ حاكم صقلية في ذلك الوقت ـ وصهراه أصدقاء من يصادق الملك الأشرف وأولاده وأعداء من يعاديهم من سائر الملوك

الفرنجية وغير الملوك الفرنجية. . . ».

ولم يقف النص عند هذا الحد ولكنه استطرد بشكل أكثر قوة حين يقول « وإن قصد البابا بروما أو ملك من ملوك الفرنج. . . أو الجنوية أو البنادقة. . . أو الداوية أو الاستبارية. . . مضرة بلاد الملك الأشرف بمحاربة أو أذية يمنعهم الملك دون حاكم هو وأخواه وصهراه ويردونهم ويعمرون شوانيهم ومراكبهم ويقصدون بلادهم ويشغلونهم بنفوسهم عن قصد بلاد الملك الأشرف وموانيه وسواحله وثغوره. . .

نضيف إلى ما سبق أن مملكة قشتالة وصقلية وأراغون قد عارضوا القوانين التي أصدرتها البابوية بخصوص تحريم التجارة مع المماليك وأصرت هذه الممالك على استمرارية علاقاتها بمصر، وقد تطور الأمر إلى أكثر من ذلك ففرنسا التي كانت تقود حركة التعصب الصليبي ضد دولة المماليك نراها تغير من سياستها وتنحني أمام الواقع الذي أخذ يفرض هيبة دولة المماليك ـ في الوقت الذي بانت فيه أوروبا منقسمة على نفسها ـ فأرسل شارل الرابع سفراءه إلى بلاط الناصر محمد يخطبون وده ويسألونه الصداقة وكان من بين رجال الوفد الفرنسي رجال يمثلون البابا يوحنا الثاني والعشرين (١١٣).

وهناك شواهد كثيرة ومتعددة لا أريد الخوض فيها تدل على أن أوروبا قد غيرت من نظرتها فعلاً إلى العالم الإسلامي بصفة عامة ودولة المماليك بصفة خاصة.

هذه الصورة تدل على روح العصر الذي عاشته العلاقات المملوكية الأوروبية أفلا يجوز لنا والأمر هكذا أن نقول فعلاً أن المماليك أصبحوا يعتقدون بأن الخطر القادم من أوروبا قد تضاءل وضعف. والدليل على صحة هذا الاعتقاد أن المماليك وفي الفترة المتأخرة عندما شعروا ببداية ظهور الخطر الأوروبي من جديد أخذوا يعيدون الاهتمام بهذا السلاح وتطويره (١١٤)،

ويكثروا منه ويوزعوه على القلاع والحصون والثغور حتى كان في مدينة الإسكندرية وحدها مائتي مكحلة (١١٥).

المقذوفات وقدور النفط:

ذكرنا فيما سبق أن النفط كان موجوداً في مصر في جبال البحر الأحمر (١١٦)، ولهذا فقد كثر استعماله وكانت له فرقة خاصة في الجيش هي فرقة الزراقين (١١٧)، إذ كانوا يلقونه بالمزراق وهو الرمح كما يلقونه أيضاً بالنشاب والأقواس والمجانيق وحتى في قوارير، وقد برع المماليك في استخدام النفط إلى حد أنهم كانوا يلقونه مشتعلاً في كل وقت حتى في وقت سقوط المطر وهبوب الرياح (١١٨). وكان النفط يدخل في تركيب العديد من أنواع السلاح وخاصة المقذوفات. ويذكر لنا أربنغا الزردكاش تفصيلاً وافياً لأنواع المقذوفات التي كانت تقذفها المجانيق نذكر منها على سبيل المثال(١١٩): « قدر عراقي . يأخذ أربعين قناً وأربعين وشقاً وأربعين حصاليان وأربعين جلتيت وأربعين علك صنوبر وأربعين صندورس، وتنحل اللازقات بقليل من النفط الخوزي ويطعم العشار بدهن الرخامة بالنفط وينزل الجميع إلى الرخامة ويخدمه عليها، ويأخذ صندورس مخرمش ويعلقه ويأخذ قدرة مدورة من الفخار ويفتح لها ثلاث شواريق وثلاث منافس ويبيضها أي «يسودها» بالزفت ويضرب اللزاقات في القدرة ويأخذ ثلاث عزاوز مطاولات يملأهم نفط ويعمل على رأس كل عزوز وردة من اللباد ولا يسد فم العزوز ويغرز العزاوز في اللزاقات ويطلع الوردات من الشواريق، ويطلع من كل شارق اكريج عراقي مقلي بكبريت ويضرب عليها شبك من الشريط. . . » ويستمر في شرح وتوضيح أنواع أخرى من المقذوفات المختلفة مثل قدر مخاسفة مضربين قدر منتن، قدرة الجير وقدرة المحزم وقدرة الصنوبرة وقدر مخفي. وهذه القدور تقذف عن المنجنيق.

أما المقذوفات التي تستخدم لقذف المراكب فيقول عنها «قدر سقوط،

تأخذ قدرة مدورة من الفخار وتملأها بحب القطن محمص باللزاق وتملأ به القدرة ويظخره بظخيرة مؤقتة مقلية في الكبريت، ويعطيه النار من الظخيرة، قدر سقوط المركب، تأخذ القدرة الفخار أكبر ما يكون وتحط فيها حبات عتيق وأصماس ونواشيد ويختم رأسها وتسقطها في الثقوب في المركب فإن من لسعته قتلته، ويذكر نوعاً آخر من أنواع القدور التي تقذف على المراكب فيقول:

«القدرة الجيرية للمخاسفة: تأخذ قدرة فخار وتملأها دواحد وتغطيه وتختم رأس القدرة ختمًا جيداً فإذا أردت أن تشعل القدرة خذ العشار وبله بالنفط وألزقه على القدرة فلبس كفك وأشعل القدرة وهو به حتى تقوى ناره، وأكثره قدام خصمك فيطلع الدواحد إلى الخصم حتى يحرقه» [١٢٠].

وهناك قدور أخرى أنتجتها المصانع الحربية المملوكية يجعل فيها النفط ويرمى بها على الحصون والقلاع لإحراقها [١٢١]، وقد استخدمت كسلاح فتاك في الأسطول الإسلامي، وهي على أنواع منها قنابل النحاس ومنها قنابل الحجر، وتتخذ من حجر مستدير ويجعل فيها خزائن تملأ بلزاق من النفط والمصطكي وغيرها، وقنابل الزجاج وتملأ من دهن يتركب من نفط مصعد وكبريت وكندس [١٢٢]، ثم ترمى هذه القوارير بالمنجنيق فيلتهب المكان، وهناك نوع آخر من النفط يتركب من خليط الزيت الطيب والنورة المسحوقة [١٢٣]، بنسب معينة توضع على النار وتحرق إحراقاً شديداً، وهناك أنواع أخرى من النفط نذكر منها نفط يرمى به بالنشاب وتركيبه هو «خذ جزء من راتنج وجزء قلفونة وجزء نورة وجزء شاش كتان أو دقيق التبن مخلوط بنخالة الحنطة وتسحق ما يجب سحقه وتخلط الجميع وتأخذ من شحم الكلى فتحرق ويؤخذ منه جزء وتخلط معه وتلف تلك العقاقير في مشاقة رقيقة وتلف عليه قشر التوت وتحشى به قلب النصل وتلف عليه وترمى فيه جمرة لطيفة أو تحرق طرفه وترمى به فإذا خالطه الهوى أشعل ناراً عظيمة فتحرق أي شيء أصابه.

وهناك نفط آخر يرمى به في قشر البيض وهو عبارة عن سندورس مذاب يضاف إليه مثله ماء الكبريت ومثله قلفونية ويجعل في قشر بيضة قد استخرج ما فيها، ويسكب على النار ويملأ به ويرمى بها على أي جسد شئت فإذا انكسرت عليه. . . فإن المكان يشتعل ناراً محرقة، كما أن هناك نفط يمشي على الماء ويصلح لحرق المراكب ويتركب من جزء من قطران وجزء كبريت معدني وهو النفط وجزء راتنج[١٢٤] ـ وهو صمغ الصنوبر ـ وجزء سندورس وجزء شحم دلفين وجزء شحم كلى الماعز ومثله كبريت أصفر ويسحق ما يستحق السحق ويرفع القطران على النار إلى الدست فإذا غلى القطران يضاف إليه السندورس[١٢٥] ويضرب به إلى أن يخلط ثم يلقى عليه بعد الفراغ الكبريت المعدني الذي كلّه الزيت القديم وترفع فإذا احتجت إليه تأخذه وتغليه إلى أن تعلم أنه قد ألحد، وتشعل فيه النار وترسله على الماء إلى ما أردت من المراكب فإنه يحرق إحراقاً عظيماً ويمشي على الماء ولا ينطفيء[١٢٦]، هذا وقد استخدم الجيش المملوكي طلاء لا يتأثر بالنار وتركيبه أن تأخذ طلقاً محلياً بالباقلي وتعجن بالمغرة وشيء من خطمية عجيناً جيداً ثم تطلي به ما أردت وتدعه حتى يجف وتعمل النار عليه فإنها لا تؤلم، كما أن هناك طلاءً آخر لا يتأثر بالنار[١٢٧] ويصنع في المصانع الحربية المملوكية وتركيبه أن تأخذ نمري السمك والشب والعوسج بنسب متساوية وتخلط الجميع بخل خميرة وتطلى به ويترك الشيء المطلي حتى يجف فلا يتأثر بالنار وهناك أيضاً ذكر النار لاتنطفيء أبداً ويدخل في تركيبها اليراع أو سرج الليل، وزيت الرصاص ودهن الزنبق وملح محروق وقطن مقطع مدقوق[١٢٨]، كذلك عرفت المصانع الحربية المملوكية أنواعاً متعددة من القنابل منها:

قنابل مصنوعة من الزجاج وتملأ بالنفط والصبر وبذور القرطم المقشور، فإذا أريد إلقاؤها تشعل قبل قذفها، فإذا انكسرت على شيء اشتعلت فيه النار ومن الجدير بالذكر أن هذا النوع من القنابل لم يعرف إلا في العصر الحديث أي بعد الحرب العالمية الأولى وهي أحسن وأسرع وسيلة لمقاومة

الدبابات وهي ما يسمى الآن «زجاجات المولوتوف» ويذكر أنها استخدمت في العصر المملوكي بأسلوب أكثر تطوراً بإضافة الصبر والقرطم المقشور[١٢٩].
كما عرفت القنابل الزمنية حيث ورد في تحقيق أورده المقريزي وأجراه الأمير تنكز نائب الشام على أثر حريق ضخم وقع في دمشق يقول النص:

«أن الرشيد سلامة النصراني وكاتب الأمير بهادر ويوسف عامل الجيش وبصحبتهما رجلان أحدهما اسمه هيلاني والآخر اسمه عازر قدما من القسطنطينية ليجاهدا في الملة الإسلامية وأنهما يعلمان صناعة النفط، فاجتمع هؤلاء بكاملهم في بستان يوسف بن مجلي وأحضر لهم ما يحتاجون إليه من المواد والنفط وتعاون الجميع في عمل كعكات وجعلوا تأثيرها لا يظهر إلا بعد أربع ساعات من استعمالها أي أنها لا تلتهب إلا بعد مضي هذه المدة»[١٣٠].

والنص غني عن التعليق فهو يؤكد بقطعية وجود ومعرفة فكرة القنبلة الزمنية التي وصلت إلى مرحلة متقدمة في أيامنا هذه. وهناك نوع آخر غريب من القنابل يحدثنا عنه النويري في كتابه الإلمام:

«إن مجاهداً مغربياً عرض على الأمير الأكز والي الإسكندرية في عام ٧٦٧ هـ سلاحاً جديداً وهو عبارة عن قدور كفيات صغيرة من الفخار ضيقة الأفمام مملوءة جيراً ناعماً مطفياً بالبول، وكانت الواحدة منها ملء الكف في قدر الرمانة مسدودة الفم الضيق بمشاقة» وهي تشبه القنابل اليدوية في أيامنا هذه ثم استطرد هذا المجاهد واصفاً استعمال هذا السلاح ومدى تأثيره فقال: «بينما كنا مسافرين في البحر المالح بين سفاقس وطرابلس، صادفنا مركب للفرنج فيه مقاتلة وتجار فلما رأونا قصدونا فلما قربوا منا ألقوا الكلاليب بمركبنا وكانوا بأجمعهم عليهم سرابيل الحديد... فلما تكلبت المركبان... قفز من مركبنا رجال حصلوا بمركبهم فصاروا يضربونهم فلا يؤثر فيهم، وكنت قد أعددت بمركبنا هذه القدور الكفيات، فأمرت من بمركبنا من أصحابنا أن يرموا الفرنج بها، وكانت الواحدة منها ملء الكف، فصار كل واحد يتناول

واحدة ويرمي عليهم فتصكهم، فيصعد الجير بعد انكسارها في وجوههم ويدخل في أعينهم ويصعد في خياشيمهم فيفسد أنفاسهم ويعمي أبصارهم. . . وهزموا وأطلعنا من مركبهم إلى مركبنا ثلاثين تاجراً مسلماً وعشرين مملوكاً وخمس عشرة جارية كانت الفرنج أسرتهم، ثم أخذنا ما كانوا أخذوه لهم. . . وأخذنا ما كان للفرنج، وعمدنا إلى مركبهم وخسفناها ومضينا إلى مركبنا. . . فكان انتصارنا عليهم بعون الله تعالى وبتلك القدور الكفيات المملوءة جيراً وبولاً» قال فلما رآها الأمير الأكز أعجبه مرآها واستحسنها وأمر القدموسي[١٣١] ـ ومعناها الخزاف أو صانع الفخار ـ أن يصنع منها عدة كثيرة فعملوا نحو عشرة آلاف واحدة ملئت جيراً ناعماً مطفياً بالبول ورفعت بقصر السلاح[١٣٢] في المدينة حاصلاً لوقتها المحتاج إليها، وعملوا أيضاً من القدور الكبار كثيراً صارت حاصلاً لرمي المجانيق كما يعمل فيها من المكائد المضرة للفرنج الكفرة[١٣٣].

وهناك قدور تقذف على العدو بمواد غريبة حيث يذكر النويري عن استعداد الأمير يلبغا لغزو جزيرة قبرص التي قام ملكها بغزو الإسكندرية عام ٧٦٥ هـ/ ١٣٦٧ م يقول النويري «إن الأمير يلبغا لم يتردد في حشد كل ما يضر العدو من المكائد في هذه الحملة التي يعدها لغزو قبرص من ذلك مثلاً أنه ملأ قدوراً من الفخار بالثعابين والحيات الكبار والصغار كي يرمي بها على الفرنج فيقتل بصكها من صادفته ثم تنكسر وتسعى الأحناش بينهم تنهشهم وتدهشهم وتحيدهم عن مواقفهم في الحرب وتكون لهم شغلاً شاغلاً فتورثهم العطب وسوء المنقلب[١٣٤].

صناعة الدخاخين «الغازات السامة»

ومن أخطر الأسلحة التي أنتجتها المصانع المملوكية، والتي يعتقد أنها من أبرز المبتكرات الحديثة في الصناعات العسكرية نرى أنها كانت من مبتكرات العقلية الإسلامية في العصر الوسيط، وكانوا يسمونها في تلك الفترة

بالدخاخين [١٣٥]، ويذكر بكتوت الرماح أنه إذا شمها أحدث مات لوقته وساعته، وإذا وضعت هذه الدخاخين على أحطاب وقذف بها إلى أرض العدو وجمعت الأحطاب واستخدمت في طهي الطعام أو غيره، المهم أن تحرق، فإذا أصابتها النار واشتعلت وانتشرت رائحتها فكل من شمها مات، سواء بعدت المسافة أم قربت، ويذكر الرماح أنواعاً متعددة من الدخاخين نأخذ منها على سبيل المثال لا الحصر نوعاً واحداً لوصف تركيبه:

يؤخذ من الكبريت الأزرق رطلين فيسحق ويوضع في قدر ويصب عليه بول جمل وبول إنسان ويطبخ بنار لينة [١٣٦] حتى ينحل كله، ثم يؤخذ من الزرنيخ الأصفر جزء ومن الحلتيت[١٣٧] جزء ومن الثوم جزء ومن دم ثور مجفف جزء وتلقى هذه الأدوية كلها عليه ويترك حتى يختلط بعضها ببعض جيداً ويلقى فوقه الدواء الأول، ويخلط الجميع بالطبخ بالبول حتى يختلط الكل جيداً، ولا يزال يسوطه، وبعد عملية الطبخ يمكن أخذ أي نوع من الخشب وتلطيخه به، وتضع فيه النار، فكل من يشم رائحته أو دخل في خياشيمه مات لوقته وساعته.

أما عن كيفية تجنب رائحته أثناء الطبخ فهي أن يأخذ الطباخ كمية من القطن وتبل في الدهن والكافور ليضعها في أنفه ليمنع عنه الرائحة [١٣٨].

وقد يثار هنا سؤال هو، هل استخدمت هذه الدخاخين من قبل الجيش المملوكي في معاركه المختلفة؟

الواقع أن المصادر لم تتحدث عن استخدام مثل هذا السلاح، ويبدو أنهم لم يلجأوا إلى استخدامها فعلاً لأسباب منها:

إنها أسلحة فتاكة ضارة بالإنسان والحيوان وقد يكونوا حرموا استخدامها إلا في حالات الضرورة القصوى، ثم أنهم لم يجدوا أنفسهم في حاجة إلى استخدامها لأن أسلحتهم التي كانوا يستخدمونها كانت كافية لردع الأعداء

وإنزال الهزيمة بهم، والدارس لمعارك الجيش المملوكي يرى هذه الحقيقة واضحة جلية.

كما أن المماليك لم يكونوا دولة معتدية وإنما كانوا في كل الظروف يدافعون عن أراضي الدولة الإسلامية ضد الغُزاة بدليل أن كل المعارك التي خاضوها وقعت على الأرض الإسلامية، ولم يحدث أن اعتدوا على أية دولة مجاورة، معنى ذلك أنهم يقاتلون في وسط المدن والقرى الإسلامية، وهذه القرى والمدن كانت آهلة بالسكان المسلمين، فإذا ما استخدموا هذه الغازات فإن ضررها سوف يكون عاماً وسيتضرر المسلمون قبل غيرهم، لأن الدخان الذي يسبح في الهواء لن يميز حينذاك بين أصدقاء أو أعداء، ثم أنهم لن يتمكنوا من توزيع الأقنعة الواقية على كل صغير وكبير في هذه المنطقة الإسلامية الشاسعة المكان الآهلة بالسكان.

المياه المهلكة:

هذا وقد أنتجت المصانع الحربية المملوكية الماء المهلك الذي إذا أصاب عين إنسان أهلكها وأصابها بالعمى الدائم وليس له طبيب ويتركب من ملح قلي وذرنيخ بنسب متساوية ويغمر بالماء ثم يصفى ويكون جاهزاً [١٣٩].

البارود:

في منتصف القرن التاسع عشر أثبتت بحوث العالمين رينو وفانسييه وغيرهما أن العرب هم الذين اخترعوا بارود المدفع السهل الانفجار، وذلك في العصر المملوكي واعتمدوا في ذلك على مخطوط نجم الدين حسن الرماح المصري الذي عاش في النصف الثاني من القرن الثالث عشر الميلادي وعنوان المخطوط (الفروسية والمناصب الحربية) وقد ذكرت كلمة بارود لأول مرة في كتاب الجامع لمفردات الأدوية لابن البيطار، وقد جاء وصف الرماح للبارود

كما يلي: تؤخذعشرة دراهم من البارود ودرهمان من الفحم ودرهماً ونصف من الكبريت وتسحق جيداً حتى تصبح كالغبار، ويملأ منها ثلث المدفع فقط خوفاً من انفزاره. ويصنع الخراط من أجل ذلك مدفعاً من حديد أو خشب تتناسب مساحة فوهته وتدك فيه الذخيرة بشدة إليها إما بندق وإما نبل ثم تشعل ويكون قياس المدفع مناسباً لثقبه، فإذا كان عميقاً أكثر من اتساع الفوهة كان ناقصاً، ومن المعروف أن الرماح هذا توفي عام ٦٩٤ هـ وهو شاب(١٤٠).

الهوامش

(١) النابلسي ـ لمع القوانين ص ٤٥ ـ ٦٠.
(٢) ابن مماتي ـ قوانين الدواوين ٣٤٥ ـ ٣٤٧.
(٣) المقريزي ـ الخطط ١/١١١.
(٤) ابن جبير ـ الرحلة ٧٦.
(٥) عبد العزيز سالم ـ العبادي ـ تاريخ البحرية الاسلامية ص٢٠٨.
(٦) المصدر السابق ص ٢١٦.
(٧) ابن عبد الظاهر تشريف الأيام ١٦١.
(٨) Atiya The crusade P18 — 19 — Egypt P — 10 — Heyd: Op. cit. P 422 — 423
سعاد ماهر البحرية الاسلامية ١٧٠.
(٩) عبد الرحمن زكي ـ السيف ص ١٠٥.
(١٠) ابن الفقيه ـ البلدان ٥/٦٦ سعاد ماهر ٣١٢.
(١١) القلقشندي ـ صبح ٣/٢٨٨.
(١٢) الخالدي ـ المقصد ورقة ١٣٣.
(١٣) المقريزي ـ السلوك ١/٥١٢.
(١٤) ن م ـ ن م جـ ١ ق ٢/٤٤٧ الخطط ٢/١٩٤.
(١٥) عبد العزيز سالم ـ العبادي ـ البحرية الاسلامية ٢٩٦.
(١٦) انظر وصية المنصور قلاوون لابنه الأشرف خليل في كتاب تشريف الأيام ص ٢٥٠ لابن عبد الظاهر.
(١٧) القلقشندي صبح ٢/١٧٦.
(١٨) المقريزي ـ الخطط ٢/١٩٤. عبد العزيز سالم ـ العبادي ن م ص ٣٠٨.
(١٩) صالح بن يحيى ـ أخبار السلف ـ ص ٣٠.
(٢٠) سيد عبد القادر ـ كشف الغمة ص ١٠٥.
(٢١) محمود نديم ـ الفن الحربي ص ٣٩.
يذكر مخطوط كامل الصناعتين ـ غير مرقم.

باب من معرفة السيف وبولاده.
يذكر «إذا أردت أن تعرف السيف.
فما كان بولاده أحمر فلا خير فيه وربما يقصف.
وما كان بولاده أخضر فهو أنفع لليابسات.
وما كان بولاده أسود فهو أنفع لقطع الطين والحجر والمدر.
وما كان بولاده أبيض فهو أنفع لقطع زرد الفولاذ.
(٢٢) الحسن بن عبد الله آثار الأول ص ١٦٠.
(٢٣) عبد الرحمن زكي ـ السيف ١٠٥ ـ ١٠٦.
(٢٤) المقريزي ـ السلوك ١/٤٤٠.
(٢٥) بكتوت الرماح ـ نهاية السؤول مخطوط ورقة ١٣٥أ.
ابن منكلي ـ التدبيرات السلطانية مخطوط ورقة ١٥.
الأنيق في المنجنيق ورقة ٢٧.
(٢٦) مرضي بن علي تبصرة أرباب الألباب ص ٤، القلقشندي صبح ٢/١٣٩.
(٢٧) ن م ـ ن ص ٥٠.
(٢٨) ن م ـ تبصرة ص ٥١.
يذكر صاحب الكامل في الصناعتين:
«أنك إذا أردت أن تسقي ما تشاء من أصناف السيوف فاعرف ألوانها واسقي كل جنس ما يوافقه.
فالأزرق يسقى بخشب يماني بما في ذلك الأدوية المختارة.
الأحمر يسقى بماء الصابون مع الأدوية.
الأخضر يسقى بدهن نفط مع شب زفت مع الأدوية المناسبة.
الأسود يسقى بماء البحر والاشنان مع الأدوية.
الأبيض يسقى بالزيت ثم بالصابون الشامي ثم يحط على شفرته اللباد ويوضع له نار من الجانبين ويورج على ذلك اللباد حتى يحمر ذلك السيف وتسقيه الماء على اللباد بحرص..
واعلم أن قدر شعيرة في السيف بلا سقاية تنقص قوته عشرة أرطال».
ويذكر بليغا الأشرفي صاحب المخطوط:
«واعلم أن كل من يعطى هذه الأسرار العظيمة لا يمكن أن يعلمها لأحد ولو كان منه بمنزلة هارون من موسى وأني كنت أعرف هذه الأسرار منذ خمسين سنة، ولم أعلمها لأحد من أولادي، ولا تلاميذي حتى وصفتها في كتابي هذا ليعرف قدرها». هنا يظهر رقم الورقة ١٣٩.
(٢٩) السيوطي ـ حسن المحاضرة. ٢/٣٣٤.
(٣٠) القلقشندي ـ صبح ٢/١٤٠.
(٣١) عبد الرازق بركات ـ الرسالة الفنية ص ٦.
(٣٢) انظر ذلك بالتفصيل في كتاب تبصرة أرباب الألباب ص ١١.
(٣٣) محمود نديم ـ الفن الحربي ص ٤٠.

(٣٤) مرضي بن علي - تبصرة ص ٨، ٩، ١١.
(٣٥) ابن منكلي - الأحكام ورقة ٤٣.
(٣٦) ن م ص ٤٩.
(٣٧) أنظر التفاصيل في تبصرة أرباب الألباب ص ١٦.
(٣٨) ن م ص انظر بعض الرسومات Elqood R. Islamic arms and armour P54—60.
(٣٩) ن م ص.
(٤٠) المقريزي السلوك ٣٠٢/١.
(٤١) ن م - الخطط ٣١٢/١، القلقشندي صبح ٤٧٣/٣.
(٤٢) الهروي - التذكرة الهروية ص ٨١ حاشية ٢.
(٤٣) القلقشندي - حج ١٤٢/٢، مرضي بن علي تبصرة ص ١٥.
(٤٤) العمري - التعريف ص ٢٠٤ - ٢٠٦.
(٤٥) مرضي بن علي - تبصرة ص ١٤ Elqood — Islamic P. 54 — 62
(٤٦) عبد الرازق بركات - الرسالة الفنية ص ٩ - ١٠.
(٤٧) ابن اربنغا - الأنيق في المنجنيق ورقة ٣٧ - ٣٨، صبح ١٣٧/٣.
(٤٨ - ٤٩) العمري - التعريف ص ٢٠٤ - ٢٠٦ القلقشندي صبح ١٤١/٢ - عن البلطة انظر Elood — Islamic P 150 — 159
(٥٠) مجهول المؤلف - خزانة السلاح تحقيق د. نبيل عبد العزيز ص ٨٦.
(٥١) أبو المحاسن - النجوم ٢٥٦/٦ - صبح ١٣٥/٢.
(٥٢) العمري - ن م ص ٢٠٤ - ٢٠٦، القلقشندي صبح ١٤٣/٢.
(٥٣) ابن هذيل - حلية الفرسان ص ٢٣١ - ٢٣٢.
(٥٤) ابن اياس - بدائع الزهور ٣٥٩/٤ - ٣٦٠.
(٥٥) محمود نديم - الفن الحربي ص ٤٩ - ٥٠.
(٥٦) مرضي بن علي - ن م. ص ١٢.
(٥٧) ابن منكلي - التدبيرات السلطانية ورقة ٣١٦ - الحسن بن عبد الله: آثار الأول ص ١٦، مرضي بن علي ن م ص ١٢ - ١٣.
(٥٨) مرضي بن علي - ن م، ص ١٢.
(٥٩) ن م ص ١٣.
(٦٠) مرضي بن علي - ن م ص ١٣ وانظر بكتوت الرماح نهاية السؤول ورقة ١٣٢ حيث تجد تفصيلات وافية عن صناعة التروس.
(٦١) المقريزي - السلوك ٤٩٠/١.
(٦٢) عبد الرحمن زكي - مقال عجيلة المقتطف سنة ١٩٤٠.
(٦٣) محمود نديم - الفن الحربي ص ٥١.
(٦٤) المقريزي - السلوك ٢٥٣/١ - ٦٩٠، محمود نديم ن م ص ٥٥.
(٦٥) المقريزي - السلوك ٦٩٠/١.

(٦٦) ابن عبد الله محمد بن محمد ـ تفريج الكروب ورقة ٧٧ ـ الحسن بن عبد الله، ن م، ١٩٤.
(٦٧) الهروي ـ التذكرة الهروية ص ٨٣ حاشية ٥.
(٦٨) مرضي بن علي ـ ن م ص ٢١.
(٦٩) الهروي ـ ن م ص ٨٣ حاشية ٤.
(٧٠) ن م ص ٨٤ حاشية ١.
(٧١) مرضي بن علي ـ ن م ص ٢٠.
(٧٢) ن م ص ١٩.
(٧٣) حسين نصار ـ النجوم الزاهرة في حلب ومصر والقاهرة ص ١٦٣.
(٧٤) مرضي بن علي ص ١٩ ـ حيث تجد تفصيلات وافية عن صناعة الدبابات وأبراج الحصار.
(٧٥) حسين نصار ـ ن م ص.
(٧٦) الحسن بن عبد الله ـ آثار الأول ص ١٩٢.
(٧٧) محمد ياسين الحموي ـ الأسطول العربي ص ٦٦.
(٧٨) الحسن بن عبد الله ـ ن م ص ١٩٦.
(٧٩) حسين نصار ـ ن م ص ٦٦ حاشية ١.
(٨٠) عبد الرازق بركات ـ الرسالة الفنية ص ١٣.
(٨١) النويري ـ الالمام لوحة ٢٠٥ ـ ٢١٠.
(٨٢) هناك رسومات توضيحية وتفصيلات جيدة عن المنجنيق في مخطوط الأنيق في المنجنيق من ورقة ٣ ـ ٧.
(٨٣) المصدر السابق ص ٧.
(٨٤) القلقشندي صبح ٢/٢٤٣ ـ ٢٤٤.
(٨٥) سنشير إليها فيما بعد وانظر احسان هندي. الحياة العسكرية ص ١٢٩.
(٨٦) سعاد ماهر البحرية الاسلامية ص ٢٢٤.
(٨٧) أبو الفدا المختصر ٤/٢٥ ـ ٢٦ عبد المنعم ماجد نظم ١٦٩.
(٨٨) زيدان التمدد الاسلامي ١/١٤١ ـ ١٤٢.
(٨٩) مرضي بن علي ن م ص ١٦.
(٩٠) سعاد ماهر ـ ن م ص ٢٢٥.
(٩١) ن م ص ٢٢٨.
(٩٢) الرماح نهاية السؤول ورقة ١٣٥ ـ ١٣٧ ـ ١٣٨.
(٩٣) ن م ص، اربنغا الزردكاش الأنيق ورقة ٢٧.
(٩٤) اربنغا الزردكاش الأنيق ورقة ٢٧.
(٩٥) علي إبراهيم حسن ـ تاريخ المماليك ص ٣٥٩.
(٩٦) محمود نديم ـ ص ١٧٦، د. جوزيف نسيم، العدوان الصليبي ص١٥٦.
عبد الرازق بركات الرسالة الفنية ص ١٤، محمد ياسين الأسطول العربي ص ٦٩.
(٩٧) احسان هندي ـ الحياة العسكرية عند العرب ص ١٥٢.

(٩٨) الخالدي - المقصد ورقة ٧٧ - أبو المحاسن النجوم ٣٩/١١
سيد عبد القادر كشف الفن ورقة ٦٥.

Ayalon Gun powder and fire arms P.2

(٩٩) القلقشندي - صبح ١٤٤/٢.

(١٠٠) Ayalon Gun powder P 137

(١٠١) Ibid: P5.

(١٠٢) أبو شامة الذيل على الروضتين ١٧٩/٢ - ١٨٠.

Ayalon Gun powder P 13.

(١٠٣) محمود نديم - الفن الحربي ١٧٨ Ayalon. Gun powder P19
وفي اعتقادي أن هذا رأي يجب أن يؤخذ بحذر كبير لأن كلمة النفط معروفة منذ القدم.

(١٠٤) جوزيف نسيم - العدوان الصليبي ص ١٥٧.

(١٠٥) محمود نديم - ص ١٧٦.

(١٠٦) يعارض أيالون هذه الفكرة Ayalon. Gun powder P13.

(١٠٧) ابن اياس - بدائع ١٢٣/٤-١٢٤، محمود نديم ن م ص ١٧٩.

(١٠٨) محمود نديم ن م ص ١٤٢ - ٢١٥.

(١٠٩) القلقشندي - صبح ١٤٤/٢ - ١٤٥.

(١١٠) الرماح الفروسية معهد المخطوطات العربية الجامعة العربية فنون حربية ٣٨.

(١١١) محمود نديم - ن م ص ١٨٠.

(١١٢) نص المعاهدة في تشريف الأيام والعصور، Atiya: Egypt and aragon p. 10

(١١٣) Hill. History of syprus P 277 — Muir the mamluk p73.

وعن علاقة المماليك بأراجون انظر Atiya. Egypt and aragon — 17 — 20 — 33 — 43.

(١١٤) انظر ما سبق.

(١١٥) ابن اياس: بدائع الزهور ١٩٢/٢ - ١٩٣ - ٢٨٧.

(١١٦) القلقشندي: صبح ١٨٨/٣.

(١١٧) أبو المحاسن - النجوم ٢٥٧/٥.

(١١٨) ماجد - نظم دولة سلاطين المماليك ص ١٧١.

(١١٩) أربنغا الزردكاش - الأنيق في المجانيق ورقة ٥ - ٦.

(١٢٠) سعاد ماهر - ن م ٢٢٩.

(١٢١) العمري - التعريف ص ٢٠٨ - القلقشندي صبح ١٤٥/٢.

(١٢٢) ابن منكلي الأحكام ورقة ٤٨ وفي هذا المخطوط تفصيلات وافية عن الموضوع.

(١٢٣) النورة المسحوقة هي الحجر الذي يحرق ويطحن. سعاد ماهر ١٥٦.

(١٢٤) الراتنج هو صمغ الصنوبر، ابن البيطار الجامع لمفردات الأدوية ٢/١٣٥.
(١٢٥) السندورس صمغ أخضر وفيه شيء من مرارة - ابن البيطار ١٣٨/٣.
(١٢٦)مرضي بن علي ص ٢٠ - ٢٣.
(١٢٧) ن م ص.
(١٢٨) ن م ص.
(١٢٨) ن م ص.
(١٢٩) محمود نديم ن م ص ٤١.
(١٣٠) محمد عبد العزيز مرزوق - السلطان الناصر محمد ص ٢٢١ - ٢٢٢.
(١٣١) القدموسي، كلمة من أصل يوناني معناها الخزاف أو الفخاري.
(١٣٢) النويري الالمام ورقة ١٤٤.
(١٣٣) ن م ورقة ٢٠٦ - ٢١٧ - عبد العزيز سالم - العبادي - البحرية الإسلامية ٣٢٣.
(١٣٤) ن م ص ٣٢٣ - ٣٢٥.
(١٣٥) هكذا عرفت في ذلك العصر.
(١٣٦) عيارات النفط ميكروفلم بالجامعة العربية وفيه مجموعة أخرى من التراكيب لمثل هذه الغازات مجهول المؤلف وغير مرقم الصفحات.
(١٣٧) الحلتيت. نوع من أنواع الصمغ.
ابن البيطار الجامع ٢٧/٢.
(١٣٨) عيارات النفط.
(١٣٩) ن م .
(١٤٠) عبد الرحمن زكي. السلاح مقال بمجلة المصور ١٩٧٠.

الفصل الرابع

تخزين السلاح ومراكز صناعته

كانت هذه هي الأسلحة التي أنتجتها المصانع الحربية المملوكية، وكان لا بد لها من مكان تحفظ فيه، وقد اعتاد سلاطين المماليك أن يحفظوا أسلحتهم هذه في مكان اسمه السلاح خاناه أو دار السلاح أو بيت السلاح أو حواصل الذخيرة وبيت الزرد[1]، وكان من ضمن الحواصل المعروفة بالبيوت الشريفة التي كانت بقلعة الجبل، هذا بالإضافة الى ما كان بالثغور والقلاع وغيرها من قاعات وقصور وزردخانات فضلاً عما كان يمتلكه كبار الأمراء من زردخانات، إذ كان كل أمير من أمراء المئين أو الطبلخانات سلطان مختصر في غالب أحواله ولكل منهم بيوت كبيوت خدمة السلطان، إلا أن رزدخاناة الأمراء لم تكن مثل زردخاناة القلعة بل كانت صورة مصغرة عنها[2].

والمعروف أن زردخاناة السلطان كانت تشتمل على أنواع عديدة من الاسلحة وأدوات الحرب كالسيوف بأنواعها وأجناسها المختلفة ورزم الرماح على أحجامها وألوانها والحوائج خاناه التي تحتوي على السهام وجعابها وريشها ونصولها، وقسي اليد والرجل المختلفة بشداتها وأوتارها المتنوعة، والنشاب والمزاريق والسكاكين والنمجاوات والجروخ والدبابيس واللتت والعمد والاطبار والبلط والحسك والكلاليب، والقطاعات وكثرة من الحجارة الكبار بصناديقها، والمكاحل والبارود والنفوط وآلتهُ والقدور(القنابل) وحوائجها المختلفة والعرادات وحبال القنب وأخشاب المجانيق والرانات الحديد والكفيات (المقاليع) الصغار

والمسامير والبيض (الخوذ) والدروع والأترسة على أنواعها، وأشكالها المختلفة والتراكيش (الحوائص) والجفتيات والتجافيف المختلفة، والجياد من الطوارق ـ وهو نوع من التروس ـ وجلود الجواميس والبقر والأوعال، وغير ذلك من آلة السلاح، هذا فضلاً عن العصي وعصي الجوكان والكرابيج والاكر، والقبة والطبر وهما من شعار الملك وكلها أشياء كانت تسجل بمسمياتها ونعوتها وأوصافها[٣] ويوجد في هذه المخازن أيضاً السلالم والمعاول والأفحال ـ وهي آلة حديدية لخلع الحجارة ـ والمثلثات والكباش والزحافات[٤] ومنها كذلك الزيارات ـ حبل أو وتر الشد ـ وفيها الزفت والقار والكلس[٥]، ويحمل الى هذه الدور كل ما يصنع من الأسلحة من مختلف الجهات محمولاً على ظهور الجمال ويحمل الى القلعة ويكون في يوم معلوم، ولقد أفرد لهذه الدار في قلعة الجبل عدة قاعات خصص كل منها لنوع معين من هذه الأسلحة[٦].

ومن الأماكن التي تستخدم أيضاً لخزن السلاح، قصر السلاح بمدينة الاسكندرية، الذي كان بمثابة مخزن شحنت فيه مختلف الأسلحة يقول النويري «وكان به ستين ألف سهم في أحد بيوت قاعة من قاعاته، ويقول وفيه عدة قاعات في كل قاعة عدة بيوت وفي كل بيت آلاف مؤلفة من السهام وغيرها من السيوف والرماح والمزاريق والأتراس والخوذ والقنابر والزرد والأطواق والقرقلات والسواعد والركب وأقدام الحديد والقسي والجرخ والركاب والأعلام والمدافع والنفوط وحيل الحروب ومكائدها الشيء الكثير، ويبدو أن هذا القصر بجانب كونه مخزناً للسلاح فقد كان يعتبر متحفاً حربياً رائعاً إذ يستطرد النويري بقوله... وسار إلى قصر السلاح - يعني السلطان شعبان ـ فدخله وشاهد ما فيه من الأسلحة الكبيرة المدخرة من عهد الملوك السابقين... بقاعات القصر المذكورة، فرسم بأن يعمل له أيضاً قاعة سلاح تسمى باسمه، كما سميت قاعات الملوك بأسمائهم[٧]، وهناك أماكن أخرى لصناعة السلاح فالمقريزي يحدثنا بأن السلطان الناصر طلب جميع صناع النشاب ومنعهم من عمل النشاب الميداني وبيعه لسائر الناس، وأمر بدكاكين

البندقانين فغلقت، ومنع من عمل أقواس البندق وبيعها.
وفي مكان آخر يذكر بأن السلطان أمر بهدم ما بالقاهرة من حوانيت صناع النشاب. . . وغلقت حوانيت القواسين وهذا يدل على أمر جديد وهو أن صناعة الأسلحة لم تكن حكراً على المؤسسات الحكومية كما لم تكن تحت إشراف الحكومة بشكل كلي ولكن ما نستشفه من النصوص السابقة هو أن أماكن خاصة لبعض الناس يتم فيها تصنيع بعض الأنواع من الأسلحة وتباع للناس بشكل حر فالنص واضح عندما يقول: ومنع من عمل أقواس البندق وبيعها وقصد السلطان بذلك كف أسباب اللهو مما يدل على أن الناس أيضاً كانوا يتسلون باللعب بهذه الأسلحة ويذكر المقريزي أن سبب إقدام السلطان على هذا المنع هو أن أحد المماليك رمي بالبندق فوقعت في عين إمرأة وقلعتها[8].

وكان من ضمن البيوتات السلطانية في نيابة دمشق، خزائن السلاح (وفي خزائن السلاح تعمل المجانيق والسلاح ويحمل إلى جميع الشام وتعمر به البلاد والقلاع،ومن قلعتها تجرد الرجال وأرباب الصنائع إلى جميع الشام[9].
وهناك زردخاناة في حصن الكختا قرب كركر غربي الفرات فيذكر ابن عبد الظاهر «وبها أمكنة الزردخانات فسيحة واسعة، وبها إهراء الغلة وصهاريج المياه»[10].

وكان يعمل في دور السلاح هذه العديد من الصناع المهرة، وتختص كل فئة منهم بإنتاج نوع معين من السلاح، فيعهد إليهم بأمر صنعه ومهمة إصلاحه إذا أصابه التلف، ويطلق على كل منهم اسم الزردكاش بمعنى صانع الزرد وكانوا يعملون في الزردخاناة باستمرار سواء كانت البلاد في حالة سلم أو حرب[11]، وكان يقوم على خدمة هذه المصانع غلمان وفراشون ومهمتهم خدمة القماش وافتقاده[12]، وكان على مباشري مصانع السلاح حفظ ما يخرج وما يدخل من أسلحة، وعليهم أن ينبهوا أمير السلاح إلى ما عنده من السلاح ما يخشى عليه التلف ليأمر بكشفها وإصلاحها وعمل ما يلزم لها من مسح ودهان وصقل وجلاء وشحن وخرز وغير ذلك[13]. هذا إلى جانب ما كان يصنع

أحياناً في قصور الأمراء والملوك والسلاطين وبعض الحوانيت المبعثرة في أنحاء المدن أو ما هو موجود من دكاكين سوق السلاح، وكان يجمع ما يصنع هنا وهناك ويحمل الى الزردخاناة السلطانية بعد دفع أثمانها أو أجرتها، وهناك يستقبله ذوي الاختصاص فمنهم فئة لمسح السلاح وأخرى لدهنه وثالثة لصقله ورابعة لجلائه وخامسة لشحذه وخرزه[١٤].

وكذلك كان الأمر بالنسبة لزردخاناة الأمراء، حيث كان لكل أمير زردخاناة خاصة به وبجنوده، ولكنها لم تكن مثل زردخاناة السلطان بل كانت صورة مصغرة لها[١٥].

أدوات الخيل.

يضاف الى ما سبق أن الجيش المملوكي كان حريصاً على صناعة الأدوات والعدد اللازمة لدوابه أثناء القتال وحتى في وقت السلم، وكان يضع هذه العدد في مكان خاص بالقلعة بعد أن تصنع في أماكن مخصصة لهذا النوع من الصناعات، وكان المكان المخصص يطلق عليه الركاب خاناه[١٦]أو الركبخاناه أي المكان الذي به معدات ركوب الخيل ويشرف عليه المهتار[١٧]، ويذكر المقريزي أن أدوات الخيل كانت لها أسواق خاصة يتزود منها المماليك بما يحتاجون إليه مثل سوق اللجميين أو سوق المهمازيين وعن سوق المهمازيين يذكر «أنه سوق معد لبيع المهاميز... وكانت تباع فيه البدلات الفضة التي كانت برسم لجم الخيل، وكان يباع به سلاسل الفضة ومخاطم الفضة»[١٨]. أما عن سوق اللجميين فيذكر عنه «يباع فيه آلات اللجم ونحوها مما يتخذ من الجلد وفي هذا السوق عدة وافرة من الطلائين وصناع الكفت برسم اللجم والركب والمهاميز ونحو ذلك وعدة من صنّاع مياتر السروج وكرابيسها وأدركت السروج تعمل ملونة... ومنها ما يعمل من الدبل ومنها ما يعمل سيوراً من الجلد البلغاري الأسود[١٩].

ويتحدث المقريزي عن سوق الخراطين[٢٠] حيث تكثر حوانيت صناعة

السكاكين أما سوق البندقانين[٢١] ففيه عدة وافرة من صناع قسي البندق. وكان البعض من هذه الأدوات يشاهد في الجواصل[٢٢]. السلطانية كالسروج بأنواعها المختلفة وألوانها المتعددة وكذلك الأكوار وهي مقاعد الهجن وهي مختلفة أيضاً من حيث النوع والصناعة ومنها اللجم المطلية بالذهب حيناً وبالفضة أحياناً أخرى ومنها سيور الخيل وجلاجلها ومهاميزها[٢٣]، والمهماز آلة حديد تكون في رجل الراكب فوق كعبه تركب على الخف ومنها البراذع المختلفة الأنواع والألوان.

هذا بالإضافة إلى بدل الخيل التي تلبس في وقت الحرب وتسمى بركستوانات[٢٤] وهي مصنوعة من الفولاذ، وهناك الرايات والآلات الموسيقية التي ترافق الجيش لتحميه في القتال وأهمها النقارات وهي اسطوانية الشكل مسدودة بالجلد من الناحيتين وهي تخزن من أماكن عرفت باسم الطبلخاناه، ومنها الكوسات[٢٥] وهي من نحاس يدق إحداها على الأخرى، وهناك المزامير والبوق ويقال أنه في وقت حصار عكا رتبت الطبول على ثلاثمائة جمل.

ويبدو أن الطبول كانت جزءاً هاماً من معدات الجيش المملوكي حيث كانت وسيلة اتصال تكتيكية بين الجند والوحدات الصغرى، اذ من الممكن أن تصدر منها أصوات متفق عليها مثل أهجم.... ترجل... استخدم السهام امتط الجواد .. انطلق للهجوم.. الكر والفر.. التف حول القائد في تشكيل محدد... انتظر إشارة الهجوم... وهكذا استخدمت كوسيلة اتصال وقيادة بين الجند[٢٦] وقادتهم ، كذلك استخدمت الآلات الموسيقية كإشارات للقيادة والسيطرة في إصدار الأوامر فهي من الممكن أن تكون مستخدمة كوسيلة لتوصيل المعلومات أو إصدار بلاغات بإشارات متفق عليها مثل الطبول تماماً[٢٧].

كذلك كان الجيش المملوكي يتزود بعدد هائل من الخيام المصنوعة من الصوف أو القطن، هذا بالإضافة الى بيوت الخشب الخركاة التي كانت تنصب

لتقي الجنود قسوة البرد[٢٨]، كذلك حملت الجيوش المملوكية معهاقدوراً ضخمة للطبخ، ومخابزاً وفوانيساً ومشاعلاً وأدوية كانت تحملها المستشفيات المتنقلة[٢٩].

موارد الصرف على السلاح خاناه.

هذه الأسلحة الهائلة الكثيرة العدد المختلفة الأنواع والأحجام والاستعمالات، وهذا العدد الكبير من الصناع والعمال والمشرفين، لابد لكل ما سبق من مورد مالي كبير يستطيع أن يسد نفقاتهم ومستلزماتهم من مواد خام ومبان وصيانة وأجور، ويبدو أن الدولة المملوكية كانت لديها الثروة الطائلة التي مكنتها من إعداد هذه القوة الضاربة التي مكنتها من ردع المعتدين.

وكانت هذه الأموال تصرف من ديوان الجيش الذي كان الأداة الرئيسية التي تقوم بتوزيع الإقطاعات وتتولى الصرف العام على التسليح والتموين والتعبئة وبناء الحصون والقلاع وإنشاء الأساطيل حسب النظام السائد. هذا الى جانب ما خصص من ضرائب مستقرة لخزائن السلاح[٣٠]، ومن تلك الضرائب ما عرف باسم الأحكار[٣١]، وهي عبارة عن أجرة مقررة على ساحات بمصر والقاهرة فمنها ما صار دوراً للسكن، ومنها ما انشىء بساتين، وكانت تلك الأجور من جملة الأموال السلطانية، ومن تلك الأحكار ما عرف باسم حكر خزائن السلاح أو «حكر الأوسية»[٣٢] وهو فيما بين البركة وقنطرة الموسكي وقفه السلطان العادل الأيوبي... على مصالح خزانة السلاح هو وعدة أماكن بمدينة مصر مع مدينة قليوب وأراضيها في جمادى الثاني ٦١٤ هـ.

كذلك أوقفت شجر الدر بلاداً بأكملها في مصر ورصدت خراجها لعملية شراء الأسلحة[٣٣] كذلك نسمع عن حوادث وقعت في عام ٨٨٠هـ/١٤٧٥م أن أرض الأزبكية كانت وقفاً على خزائن السلاح[٣٤]، ومن تلك الأحكار أيضاً وقف السلطان قايتباي على المدرسة الأشرفية وقاعة السلاح بدمياط.

أما موارد الصرف على زردخانات الأمراء، فالمعرف أن الأمراء أصحاب

الإقطاعات كانوا مكلفين بالإنفاق على متطلباتهم الحربية وتسليحها وإلحاق الزردخانات والأسلحة بها يستوون في ذلك مع السلطان.

هذا بالإضافة الى ما كانوا يحصلون عليه من نفقات الجهاد، وما كان ينعم به السلاطين على أمرائهم من مال وسلاح لغرض التقوية[٣٥]، فضلاً عن هدايا السلاح التي كانوا يحصلون عليها من السلطان في بعض المناسبات الطيبة والدليل على ذلك عندما خرج السلطان الظاهر إلى الإسكندرية في عام ٦٩٠ هـ وعودته منها خلع على الأمراء[٣٦]، كذلك فعل السلطان المنصور قلاوون عندما فتح ثغر الكختا يذكر ابن عبد الظاهر أنه عندما تسلم الحصن سيّر الذين كانوا به ليشملهم الأنعام جماعة بعد جماعة، فحضروا وأحسن مولانا السلطان إليهم وأقطع منهم من يستحق الأقطاع وجهزت إليها الزردخانات والآلات[٣٧]، وفي مكان آخر يذكر نفس المصدر أنه عندما عزم السلطان قلاوون على فتح حصن المرقب «جهز مولانا السلطان زردخاناة عظيمة من مصر، فيها أحمال كثيرة من النشاب وغيره، وكذلك فرق على الأمراء والجند نشاب يحملونه معهم ليحضروه، إذا طلب منهم، وجهزت آلات من الحديد والنفط مما لا يوجد إلا من دخائره وخزائن سلاحه[٣٨].

ومن ضمن المصادر التي يزود بها الأمراء زردخاناتهم ما يحصلوا عليه نتيجة الغنائم من العدو حيث يوزع عليهم السلاح الذي غنموه كل حسب منزلته ورتبته[٣٩]. وإذا عرفنا أن الإقطاع الحربي في مصر المملوكية كان مصدراً سنوياً لدخل كل أمير بما يعادل رتبته الحربية، أدركنا في النهاية حقيقة أن تفاوت الأمراء في القوة والثراء كان يظهر من تعداد أجناد كل واحد منهم، بل وفي تسليحهم التسليح الكافي أو المناسب[٣٩]، وأحياناً كان المماليك السلطانية يحصلون على مزيد من السلاح من الزردخاناة السلطانية.

وقد حدث في عام ٧٤٢ هـ / ١٣٤١ م أن قامت فتنة بين الأمير قوصون الناصري مدبر المملكة ورأس المشورة وبين المماليك السلطانية، فلبست

المماليك السلطانية السلاح بالقلعة وكسروا الزردخاناة وأخذوا منها السلاح [٤٠]، هذا ولم تكن زردخانات الأمراء بنجوة من السلب والنهب، فكثيراً ما يحدث خلاف بين أمير وآخر فكانت عمليات السلب والنهب تنزل بزردخاناتهم، فالعامة مثلاً في عام ٧٤٢ هـ هاجموا اسطبل الأمير قوصون وزردخانه وحواصله [٤١] ونهبوها، وفي عام ٧٨٠ هـ حدث أن فتح اينال اليوسفي الأمير سلاح زردخاناة الأمير برقوق وأخرج ما فيها من السلاح وفرقه على المماليك السلطانية [٤٢].

الموظفون المشرفون على الزردخاناة:

إن هذه الحركة الواسعة في ميدان التصنيع العسكري تستوعب الأعداد الكثيرة من العمال والفنيين والمشرفين ويحتاجون الى من ينظم هذه الأعمال الصناعية الضخمة، فقامت الدولة بتعيين عدد من الموظفين والمشرفين من ذوي الاختصاصات المختلفة، ويمكن تقسيم هؤلاء الموظفين الى قسمين.

الأول: الموظفون أصحاب التواقيع.

الثاني: الموظفون أرباب السلاح.

وأهم موظفي القسم الأول:

أ ـ موظفو النظر من خزائن السلاح

وموضوعها التحدث على ما يستعمل ويبتاع من أنواع السلاح الذي يحمل للسلاح خاناه، وإعادة النظر فيها أن يجمع ما يتحصل عليه من السلاح المعمول في كل سنة ويجهزه ليزفه دفعة واحدة وقد حمل على رؤوس الحمالين في يوم معين الى قلعة الجبل، فإذا تم ذلك خلع عليه وعلى رفقته من المباشرين [٤٣]، أما توقيع من تولى هذه الوظيفة السنية، فلا يكون إلا من السلطان [٤٤]، ويذكر في نفس التوقيع بمسؤوليته، فنذكر مثلاً بأن بيده تدابير خواص السلطان الشريفة

وأن عليه أن يكشف عما «بهذه الخزائن من عدة الحرب والآلات المعدة للضرب والطعن، ويستمر في تكثيرها عن ساعد اجتهاده... وليحفظ ما ينفق على هذا العدد من الضياع، ويأتي بما تأتي به الضياع على أحسن الوجوه وأجمل الأوضاع، وليضبط مايصرف عليها من الأموال... ويسلك بحسن نظره لهذه الخزائن ما ينتظر به أن يفوق أنظار الأنظار ويرتقب ويعلم أن هذا أول إقبالنا عليه(٤٥).

شاد السلاح خاناه.

ورتبة أمير عشرة(٤٦) وشروط تعيينه أن يكون أميناً ناصحاً صاحب فكر رشيد... خبيراً بأنواع السلاح واستعمالاته وعليه أن يباشر هذه الوظيفة المباركة بعزم وأمانة وصيانة معتبراً لأحوالها... موفراً من أسلحتها التي تتوفر بها... منصفاً لصنّاعها الذين يحمد عند استعمالهم صنيعه واهتمامه، مكثراً لخزائنها من ذخائر العدد مجهزاً لجيش الإسلام من مادة عملها بأنفع مدد(٤٧).

مشارفة خزائن السلاح.

وصاحبها صاحب قلم يستخدم في تدبير الجيوش وتجهيز السلاح وضبطه فهو مطالب بصفة عامة بتحقيق الحواصل وله الختم عليها(٤٨).

ب ـ الموظفون من أرباب السلاح

أمرة سلاح:

وموضوعها فيما يختص بالسلاح خاناه أن صاحبها يتحدث في معظم الأمور المتعلقة بالسلاح خاناه ومتعلقاتها وما يستعمل لها ويقدم إليها، ويطلق منها ولا يكون متوليها إلا واحداً من أمراء المئين(٤٩). وهو الذي يناول السلطان آلة الحرب والسلاح في يوم الحرب(٥٠)، وقد أوضح الخالدي اختصاصات هذا الموظف فقال أنه هو « المتحدث على استعمال آلات

الحرب والمخاطب لذلك عن المقصود ويستدعي الأصناف من جهتها مصراً وشاماً، وله الأمر على البارودية، وصناع الزردخاناة والفولاذية ونحوهم»[٥١].

أمراء جاندار:

وموضوعها فيما يختص بالسلاح خاناه؛ أن صاحبها المتسلم للسلاح خاناه، وقد جرت العادة أن يكون فيها أميران، أولهما مقدم على الثاني ورتبته مقدم ألف والثاني أمير طبلخاناة [٥٢].

أضف إلى أولئك أنه كان بالسلاح خاناه عدة مستكثرة من صناع كل صنف من السلاح مقيمين ويعملون ولا يبطلون في إصلاح وتجديد المستعمل ويعرف كل منهم بالزردكاش[٥٣] كما أشرنا وكان كبيرهم أو المشرف عليهم يسمى «بالزردكاش الكبير» وانه كان من أرباب الوظائف أمراء الطبلخانات[٥٤]، وأن مرتبته تصل إلى إمرة عشرة، ومن حقه عرض خزائن السلاح إذا لزم الأمر وله تفرقة السلاح على المماليك السلطانية، كما يلاحظ أن بعض السلاطين عهدوا إليه بمهمة الخروج بالزردخاناه الحربية[٥٥]، إلى جانب الزردكاشية وجدت فئة أخرى من المستوفين والمباشرين يستدعون ما يحتاج إليه من خشب وحديد وعقب وسلوخ وأصباغ وآلات، يعملون فيها ما يؤمرون به من آلات السلاح على اختلاف أوصافها وتباين أصنافها[٥٦]، يضاف الى ذلك أن المستوفي كان عليه من ضمن ما عليه نظم جوامع السلاح خاناه والعدد والآلات[٥٧].

أما المباشر:

فعليه أن يحفظ ما يدخل إلى السلاح خاناه وضبط ما يخرج منها مما يتسلم السلاح دارية والزردكشية والحرب دارية والرمح دارية من أنواع السلاح وأصنافه إذا ركب السلطان أو جلس في المجلس العام واستعادته منهم وإعادته لهم، والاعتداد لهم مما أنعم به السلطان... ويوصل ما يصل إلى السلاح

خاناه من خزائن السلاح وغيرها، وما يصل إليه من سيوف الأمراء الذين يرسم باعتقالهم، وما يحمل إليه من سلاح من توفي من الأمراء على جاري العادة (٥٨)، ويميز ذلك من غيره، وعليه أن ينبه أمير سلاح على ما عنده من العدد التي كان يخشى التلف بتطاول المدة ليأمر بكشفها وإصلاحها من مسح ودهان وصقل وجلاء وشحذ وتثقيف وغير ذلك (٥٩)، كما يضاف إلى أولئك النفر من كانوا بالسلاح خاناه من غلمان وفراشين (٦٠).

الأسلحة البحرية (٦١)

تحدثنا عن الأسلحة البرية التي أنتجتها المصانع الحربية المملوكية واستخدمها الجيش في معاركه المتعددة، أما عن الأسلحة البحرية فقد وجدت هي الأخرى عناية كبيرة من سلاطين المماليك نظراً لأهمية الموقع الذي قامت عليه دولتهم، فهي تطل على شواطىء البحر المتوسط والبحر الأحمر كما أن نهر النيل يخترقها من الجنوب إلى الشمال. فامتلكوا السفن البحرية والنيلية بأعداد هائلة تمكنت من الدفاع عن الأراضي الإسلامية من ناحية، وساهمت في تنشيط وحماية الحركة التجارية في الداخل والخارج من ناحية أخرى. وقد تركزت صناعة هذه السفن في أماكن مخصصة أقيمت لهذا الغرض ومن أهمها:

دار صناعة الروضة

اهتم السلطان الظاهر بيبرس بالقوة البحرية نظراً لاتساع المهام التي كان ينوي القيام بها فهو يتطلع الى تحرير الأراضي المقدسة من الصليبيين ويحميها من هجمات المغول، ولذلك اهتم بتعمير وتنشيط دار صناعة الروضة وعمر فيها الكثير من الشواني حتى أصبحت السفن الحربية والتجارية تصنع هنا تارة ومن دار صناعة الفسطاط أو مصر تارة أخرى (٦٢).

وقد ظل الاهتمام بدار صناعة الروضة طوال العصر المملوكي الأول والثاني (٦٣).

دار صناعة مصر ـ الفسطاط

أسست هذه الدار في أيام الدولة الأخشيدية وظلت قاعدة صناعية لبناء السفن حتى قيام الدولة المملوكية، حيث كانت هذه الدار تقوم بصناعة السفن الحربية التي شاركت في الدفاع عن السواحل الإسلامية في مصر والشام أيام الدولة الأيوبية حيث يذكر المقريزي « إن هذه المراكب كانت بعد إتمامها من صناعة مصر تشحن بآلات الحرب والمقاتلة ثم تقلع في النيل إلى الثغور الشمالية كالإسكندرية أو رشيد أو دمياط أو الفرما، حيث تمر من هناك إلى جهاد أعداء الدين من الروم أو الفرنج في البحر المتوسط (٦٤). وإن الدور الذي قامت به هذه الدار من إعداد المراكب الحربية لصد الحملة الصليبية الخامسة والسابعة كان له الفضل الكبير في إحراز النصر (٦٥)، وفي العهد المملوكي استمرت هذه الدار على حيويتها ونشاطها بفضل العناية التي وجهها سلاطين المماليك، فالظاهر بيبرس يمنع الناس من التصرف في أعواد الخشب اللازم لعمل السفن، وأمر بإنشاء عشرين شونه ولازم الركوب إلى صناعة العمارة بمصر كل يوم مدة شهر المحرم ٦٧٠ هـ/١٢٧١ م إلى أن تم إنشاؤها، كذلك اهتم الأشرف خليل بن المنصور قلاوون بدار صناعة مصر وأمر وزيره ابن السلعوس بالإشراف على إنشاء أسطول قوي، فلما كملت عدته ستين شينياً أمر بتجهيزها بالآلات الحربية والجند ودشن الأسطول وسط احتفال مهيب (٦٦)، وفي عام ٧٠٢ هـ أنشأ الناصر محمد اسطولاً في دار صناعة مصر غزا به جزيرة أرواد، ويصف المقريزي تدشين الأسطول والمناورات التي قام بها(٦٧).

وكانت هناك دور أخرى لصناعة السفن مثل دار صناعة بولاق التي أصبحت معروفة ونشطة في أواسط القرن الرابع عشر الميلادي، وقد تحدث

السيوطي عن هبوب عاصفة في ٧٥٧ هـ أغرقت نحو ثلاثماية مركب عند ساحل بولاق [٦٨]، إلا أن هذه الدار شهدت أوج نشاطها وإنتاجها في العصر المملوكي الثاني، حيث قام السلطان الغوري في عام ٩١٧ باستعراض أحد المراكب الضخمة التي انتجتها هذه الدار [٦٩].

كذلك كان هناك داراً لصناعة السفن في الإسكندرية ودمياط ويذكر المقريزي أنه كانت بميناء دمياط داراً لإنشاء السفن يديرها أهل خبرة من هذا الفن [٧٠].

دار صناعة بيروت

قامت بيروت بدور هام في حركة تصنيع السفن وخاصة في العصر المملوكي إذ يذكر صالح بن يحيى «ورسم يلبغا للأمير بيدمر الخوارزمي بالتوجه إلى بيروت ليعمر من حرشها مراكب كثيرة حمالات وشواني للدخول إلى قبرص فحضر إلى بيروت وأحضر صناع كثر من سائر الممالك فكانوا جمعاً غفيراً، وعمر الأمير بيدمر بظاهر بيروت مسطبة عرفت به إلى الآن، وكانت المراكب تعمل عندها على بعد من البحر وحضر عسكر الشام فأنزلوه فيما بين البحر والمراكب حذراً من مراكب صاحب قبرص لئلا يحضروا حين غفلة فيحرقوا ما يعمل من المراكب [٧١]، ويذكر النويري أن دور الصناعة في مصر استطاعت أن تبني في عام واحد مائة مركب حربي [٧٢]. وهذا يدل على الحيوية والنشاط في هذه الدور.

وكانت دور الصناعة هذه تعج بكافة أرباب الحرف المتخصصين في بناء السفن كالنجارين والحدادين والقلافطة وغيرهم من ذوي المهن والحرف المختلفة التي تدخل في صناعة السفن، وكانت لهؤلاء الحرفيين نظم وقوانين يسيرون عليها إذ يذكر ابن بسام [٧٣]: ينبغي أن يشرف عليهم عريف ثقة، ثم أن هؤلاء النجارين والقلافطة يأخذون في الصناعة المعمورة يعني صناعة الأساطيل ـ بالعز الدائم من السلطان عزه الله تعالى ـ «وهنا قد يفهم

من عبارة ابن بسام أنه على النجارين والقلافطة الذين يعملون في صناعة الأساطيل أن يحصلوا على ترخيص معين من السلطان أو من ينوب عنه، كذلك كان المحتسب يهتم بالمراصد والمراقب لأهميتها في مراقبة السفن فيذكر ابن بسام «ينبغي أن يتقدم إلى متولي المراقب على البحر الملح ورصده البحار ويأمرهم بالتهليل والتكبير والتوقيد للنار في ليلة الجمعة، ليعلم أنه مستيقظ وعلى حذر»(٧٤)، ولقد اشتهر الأقباط بصناعة السفن في مصر، لكنهم لم يكونوا بمفردهم في هذه الصناعة بل قدم إلى مصر مجموعة كبيرة من العراقيين ممن لهم خبرة بصناعة السفن ويذكر النويري «وقد صنع نجارو البغاددة في بضع وثلاثين وسبعمائة للسلطان الناصر محمد مركباً بنيل مصر متقنة العمل، مختصرة الطول طرف مجاذيفها كهيئة مطرحة الخبز المدورة؛ تدور تلك المراكب عند الجذف لها في جانبها الواحد بسرعة إذا اختبر دورانها وإذا اختير سيرها تسير بالمجذف بسرعة في الجانبين وتدعى الشبارة، فلما ركبها السلطان اختار الحراقة عليها وتركها(٧٥).

كذلك استخدم المماليك في أسطولهم المغاربة نظراً لمهارتهم في قيادة السفن والملاحة منذ أمد بعيد وقد ذاع صيتهم في الجهاد البحري ضد الصليبيين في العصر الأيوبي ثم أصبح لهم أي للمغاربة في عصر المماليك مكانة خاصة، وكان يلبغا الخاصكي يقدرهم قدرهم ويعتبرهم فرسان البحر(٧٦)، وكان يكثر من قوّاد المغاربة على المراكب وكان رئيس دار الصناعة بالإسكندرية إبراهيم التازي مغربياً، وقد ذكر النويري معلقاً على بطولتهم بأن الفرنج «لا يقهرهم إلا المغاربة وذلك لمخالطتهم لهم بجزيرة الأندلس، ويعرفون طرق حربهم وطعنهم وضربهم في بر وبحر»(٧٧)، ويذكر النويري في مكان آخر أن إبراهيم التازي المغربي قام بتكليف من السلطان شعبان بالإغارة على جزر العدو بعد أن أغاروا على الإسكندرية.

«وفي رجب ٧٦٩ هـ أقلع التازي من ثغر الإسكندرية في مركبين حربيين بهما خمسمائة مقاتل متجهاً إلى جزيرة قبرص وما يجاورها من جزر، فغنم

سفينة بقلعين للعدو أرسلها إلى الإسكندرية بعد أن حجز معه رجالها واستمر التازي في غارته ثلاثة وعشرين يوماً عاد بعدها محملاً بالغنائم والأسرى فارتجت الإسكندرية لقدومه، وخرج أهلها إلى موضع منارها لاستقباله واصطف الترك المجردة لحراسة الإسكندرية بطول الساحل راكبين خيولهم. متطلعين إلى الغرابين القادمين، وقد ارتفعت عليها أعلام السلطان، ودخل الريس إبراهيم التازي الإسكندرية وسار من خلفه أسرى الفرنج يتقدمهم راهب كهل وهو راكب حماراً ووجهه إلى ذنبه، وخلفه يسير خمسة وثلاثون أسيراً حفاة الأقدام قد ربطت أعناقهم بالحبال وأيديهم بالخشب(٧٨)، كذلك نجح التازي في صد هجوم آخر قام به القبارصة على الإسكندرية مرة أخرى عام ٧٧٠ هـ (٧٩).

السفن التي انتجتها المصانع المملوكية

وكانت على أنواع منها الشواني والحراريق والطرادات والاغربة والبطس والقراقير(٨٠)، ويذكر النويري في كتابه الالمام العديد من السفن التي كانت في البحر المتوسط «منها القراقر والزوارق والطرايد والغربان والشواني والشياطي والسلامير والعشاريات» ولكل نوع منها مهمة خاصة في الحرب ونقل الجيوش والخيول ووسق البضائع وحمل مستلزمات الجند كما سنرى(٨١).

الشواني:

وهي سفن حربية كبيرة ذات أبراج وقلاع تستعمل للدفاع والهجوم، وتجهز في أيام الحرب بالسلاح والنفطية وتشحن بالمقاتلة والجنود البحرية.

الحراريق:

سفن حربية تصغر الشواني وتستخدم في حمل الأسلحة النارية كالنار الاغريقية، وبها مواضع خاصة تلقى منها النيران والظاهر أن معظم الحراريق

كانت تستخدم في النيل لنقل الأمراء ورجال الدولة في الاستعراضات البحرية والحفلات الرسمية.

الأغربة:

ومهمتها حمل الجيش ويسير بالقلع والمجاديف ومن خصائصه أنه مزود بجسر من الخشب يهبط على مركب العدو. ويمر على ظهره الجند فيقاتلون بالأساليب البرية (٨٢).

البطس:

وتستعمل لحمل المجانيق والجند والسلاح وسائر آلات الحرب ويذكر أنها تحمل مئات الرجال يقدرهم النويري ٧٠٠ رجل، ولها أسطح عالية وطبقات متعددة، كل طبقة خاصة بفئة من الجيش(٨٣).

القراقير:

وهي سفن الإمداد وتقوم بمهمة تموين الأسطول بالزاد والمتاع وأنواع السلاح ومنها ما يحتوي على ثلاثة ظهور.

العشاريات:

وهي التي تنقل البضائع والرجال من الساحل لأن القراقر لا تقف إلا في المكان الغزير الماء، ويقال أنها كانت تستخدم لاستجمام الملوك والسلاطين والأمراء، وفي بعض الأحيان تستخدم لنقل الجند أيام الحرب(٨٤).

الطرايد:

وهي مفتوحة المواخير بأبواب تفتح وتغلق وهي معدة لحمل الخيل في أوقات الحرب وتتسع لعدد يتراوح ما بين ٤٠ ـ ٨٠ فرساً.

الشيطي

ومهمته كشف العدو ويرد بالخبر للقراقر والغربان وغيرها وتشبه سفن الاستطلاع اليوم وهي سريعة الحركة.

القوارب:

وهي نافعة لغزاة المسلمين في البحر، ويكون في كل قارب أربعة أو خمسة من الرماة يساعدون أغربة المسلمين على القتال ضد أغربة العدو، وذلك لسرعة دورانها وخفتها في الحركة. وهي من توابع الأسطول.

السلالير

ومفردها سلورة، وهي نوع من المراكب متوسط الحجم يستعمل في الحرب والسلم على السواء.

الحمالات:

وكانت مخصصة لنقل المؤونة لرجال الأسطول حيث يذكر ابن مماتي « إنها كانت تحمل الغلال » ويذكر عنها المقريزي « ويكون فيها غلمان الخيالة وصنّاع المراكب » ومثلها المراكب الديوانية التي تحمل الغلات السلطانية.

الشباك.

وجمعها شبابك، وهي مركب حربي صغير الحجم تستعمل في البحر المتوسط.

السنبوك.

سفينة كبيرة تبلغ حمولتها ما بين ٨٨ إلى ١٨٠ طناً وهي مكشوفة

وليس لها ظهر مدببة المقدمة عريضة المؤخرة(٨٥) وعن سفن البحر الأحمر يقدم لنا النويري لمحة سريعة وكذلك عن بعض العادات والتقاليد المتبعة عند البحارة « ومراكب بحر اليمن ليست مسمورة بالمسامير مثل مراكب بحر الروم « البحر المتوسط » بل مخيطة بالقنبار وهو ليف قشر جوز النارجيل والبن. . . » ومن أسماء مراكب بحر اليمن والهند الجلاب والزوم والسنابل، ومن عادة الجلبة أنها إذا اقتربت من بر عنده جبل يقف النواتية بقلة ويسلم على الجبل ويقول: « أيها الجبل! هذا مركب الناخودا ـ وهو قائد المركب ـ مسافر من البلد الفلاني يريد البلاد الفلاني، خاطرك معه ». وربما طبخ شيئاً من أرز ورمى به البحر ويقول له: « هذه ضيافتك أيها الجبل » وكذلك في بحر عيذاب يجمع من التجار ما يؤكل، ويرمى له في البحر برسم الهدية. ومن عادتهم إذا لم يكن عندهم ريح يذبحون دجاجة سوداء أو جدياً أسود ويلطخ بدمه أصول الصواري ويبخر بالعود القماري.

وكان يرافق كل مركب أربعة غطاسين ليس لهم شغل إلا إذا زاد الماء في المركب فيتدهنون بالشيرج ويسدون مناخرهم بالشمع وينزلون البحر، ومع كل واحد منهم مخطافان، وبينهما حبل رقيق، فيطرح المخطاف الأول في خشب المركب فوق الماء؛ ويغطس بالثاني ويتنقل به تحت الماء. . . ويتجسس بأذنه فحيثما سمع خرير بالماء، سده بالشمع لأنها تكون ثقباً مسدودة بالحريد وهي موضع الخياطة. . . فيسد في نهاره العشرين والثلاثين ثقباً، ومراكب الهند بأجمعها بسبعة قلوع. . . والقلوع مصنوعة من حصر النارجيل والكتان.

وقد أجمع المؤرخون على أن سفن البحر الأحمر والمحيط الهندي كانت تصنع من أخشاب متينة مثل خشب الساج أو خشب جوز الهند، وكانت المسامير لا تستعمل في بناء سفن البحر الأحمر كما هو الحال في سفن البحر المتوسط بل كانت تخاط ألواحها بحبال الليف وتثبت بدسر «مسامير خشبية» من عيدان النخل، ثم تطلى بالشحوم مثل دهن سمك القرش كي يلين عودها لكثرة الشعاب

المعترضة في هذا البحر علماً بأن سفن البحر المتوسط كانت تقلفط بالقطران أو القار [٨٦].

هذه هي بعض السفن التي أنتجتها دور الصناعة المملوكية، وقد سبق أن تحدثنا عن بعض المعدات الحربية التي استخدمها فرسان البحر مثل السيوف والرماح والسهام والتراس والخوذ الى جانب الستائر والكلاليب، ومن الآلات التي لم نذكرها:

الستائر:

وهي آلات للوقاية من الطوارق وما في معناها مما يستر به على الأسوار والسفن التي يقع فيها القتال [٨٧] ويقول عنها القلقشندي « هي آلات الوقاية من الطوارىء وما في معناها كما يستر به على الأسوار والسفن » حيث كانوا يعلقون حول المراكب من الخارج الجلود أو اللبود المبلولة بالخل أو الماء أو الشب والنطرون لدفع أذى النفط وقد يحتاطون لذلك بالطين المخلوط بالبورق والنطرون أو الخطمى المعجون بالخل فإن هذه المواد تقاوم النفط [٨٨].

أما الكلاليب البحرية:

فهي تستعمل عند لقاء مراكب الأعداء يقذفون بها ويشدونها اليهم ثم يرمون عليها ألواحاً كالجسور ويمرون عليها، ولمقاومة الكلاليب فؤوس ثقيلة يضربونها بها فتنقطع ويبطل عملها.

ومن الأدوات الحربية المستخدمة في السفن اللجام وهي أداة كالفأس في مقدمة السفينة وتتكون من حديدة طويلة مسنونة الرأس وأسفلها مجوف كسنان الرمح تدخل من أسفلها في خشبة كالقناة بارزة في مقدم السفينة يقال لها الأسطام، فيصير اللجام كأنه أسنان رمح بارز من مقدم السفينة فيحتالون في طعن المراكب به، ومن الآلات الحربية المستخدمة التوابيت وهي صناديق

مفتحة من أعلاها تنصب بأعلى الصواري يصعد إليها البحريون ومعهم قطع من الحجارة يضعونها في مخلاة تعلق إلى جانب التابوت، ويرمون بها على الأعداء، ثم يحتمون في التوابيت، وقد يحملون معهم قوارير من النفط أو جرار النورة يرمون بها في مراكب العدو فتعمى الرجال بغبارها وهناك سلاح يسمى الباسليقات وهو عبارة عن سلاسل تنتهي عند رؤوسها برمانة من الحديد كانت تستخدم في القتال على سطح السفن (٨٩)، ومن الأسلحة الهامة التي استخدمتها السفن الحربية وسبق أن أشرنا إليها المدافع والمجانيق.

هذا وقد اعتاد المماليك أن يغطوا مراكبهم بقلاع ذات لون أزرق حتى لا تظهر من بعيد (٩٠).

هذا وكانت دور الصناعة المملوكية تنتج العديد من أشرعة السفن من التيل المكون من خليط من ألياف البردي وأعشاب وألياف الكتان، وكانت أنواع الأقمشة والمنسوجات المستعملة في الشراع مختلفة الجودة والأسعار.

أما الحبال فكانت تصنع أحياناً من الجلد والغاب من ألياف البردي والكتان والقنب، يذكر ابن بطوطة أن ليف قشر جوز النارجيل كان يدبغ في مصر على ساحل عيذاب ثم يضربونه المرازب ثم تغزله النساء وتصنع منه الحبال التي يخيطون بها خشب المراكب بدلاً من المسامير، ثم يضعون خلالها دسراً من عيدان الجريد ثم يطلونها بالشحوم مثل دهن الخروع أو دهن القرش حتى يلين عودها (٩١).

أما العاملون في صناعة الأسطول فكانوا يصنفون كل على حسب فنه ومهنته فمنهم النجارون ومنهم الحدادون والمقلفطون والزواقون والنفاطون والزراقون ورجال المجانيق والمدافع.

هذا ويتضح اهتمام المماليك بأساطيلهم من خلال النظم والقوانين التي دونت في كتب وضعت لهذا الغرض، وقد جاء في هذه المصنفات: أنهم كانوا يحددون أوقاتاً معينة للبدء في صناعة السفن، كما يحددون الوقت المناسب

لإنزالها في الماء، كما تحدثوا عن الأطعمة والأشربه التي يجب تناولها قبل الإقلاع وأثناء السفر، كما وضعت القوانين والنظم لربابنة السفن يجب أن يلتزموا بها وقت السلم ووقت الحرب، يذكر المقريزي «أما الحروب البحرية بين السفن فكان لها قوانين في دولة المماليك البحرية والبرجية منها: أنه إذا كانت الحرب بين الشواني وبين البطس والمسطحات فإنهم لا يأتون بالشواني ولا بالمراكب الصغيرة خلف البطس والمسطحات لئلا تغرق في واديها، ولا يأتون بها من جانبها فإنها لا يمكنها الالتصاق بها، بل تقابلها عن بعد وتسطحها بالفأس الذي يقال له اللجام فيدخل عند الحرب من أسطام المركب وهي الخشبة التي في مقدمة الشيني، وإذا أمكنتهم الفرصة تأخروا به قليلاً ثم قذفوا قذفة واحدة قوية فينبطح المركب ويدخل الماء فيه، وإذا كانت الحرب بين الشواني وبعضها البعض الآخر، تقرب الشيني من الشيني، فتوقفه ثم تطرح الألواح بينها كالجسر ويدخلون إليه ويقاتلون. وكانت المراكب الكبار إذا سكنت الريح عنها جذبتها الشواني إلى موضع القتال، وكان الأصل عندهم في قتال البحر هو معرفة الرياح» (٩٢).

أما عن الواجبات التي يجب على الربان اتباعها قبل إنزال الأسطول الى البحر يذكر «وكان على والي حرب البحر إذا خرج للقتال أن يستجيد المراكب ويستجدها، ويكثر تقويتها وإدخار آلاتها حتى إذا تلف شيء منه وجد ما يخلفه، ويحتاط في تغييرها، وأحكام ما يلاقي الماء منها فإنه الأصل الذي يعول عليه، ويتخير الرؤساء والقواد والعارفين بمسالك البحر ومراسيه، وعلامات الريح، وتغييرات الأنواء والحركات البحرية من المد والجزر، وكان من واجباته وقت الحرب ألا يهجم على المراسي لئلا تكون مراكب العدو بها كامنة، ولا يتقدم الى البر إلا بعد المعرفة، والإحراز من الأحجار والشعاب والأحراش التي تنكسر عليها المراكب، ويكثر من الماء والزاد ليستظهر على طول المد إن دعت الحاجة اليه كإدخار أصحاب الصحون، وإن كان القتال قرب البر والسواحل والجزائر فيجعل عيونه وطلائعه على الجبال فيتأهب لذلك، ويفعل مقدم المركب

من تأليفه أصحابه ووعدهم واستمالتهم وتحريضهم قبل الحرب، كما يفعل والي البر وأبلغ من ذلك، لأن هذا لا منجى منه ولا مخلص الا بصدق القتال إما كاسراً أو مكسوراً »[٩٣].

وكان على ربابنة السفن أن يكونوا على علم بالمسافات والقياسات والإشارات وحلول الشمس والقمر والرياح ومواسمها ومواسم البحر والآلات والسفن وينبغي أن يعرف المطالع والاستوايات ومطالع النجوم ومغاربها وحركة المد والجزر ومسالك البحر ومجاريه.

ومن الآلات التي لا تستغني عنها السفن بيت الابرة (البوصلة) حيث يصفه النويري بقوله: . . . «ويؤخذ حق من الخشب ويركب فيه قشرة خشب معروفة عند أهل البحر ولها خرطوم فيه إبرة بوسط القشرة ومربوط بها. ثم يجعل في وسط القشرة سهم قائم ويجعل فوق ذلك الحق زجاجة لتحفظه من الهواء، وبواسطة هذه الإبرة يستطيع رئيس المركب أن يحدد الاتجاه الذي يقصده » [٩٤].

الهوامش

(١) القلقشندي ـ صبح ٤/١١، الظاهري زبدة كشف الممالك ص ١٢٢.
(٢) أبو المحاسن ـ النجوم ١٨٤/٧ ـ ١٨٥.
(٣) مؤلف مجهول ـ خزانة السلاح ص ٦.
(٤) الهروي ـ ن م ص ١٠٥ ـ ١٠٦.
(٥) ن م . ص ٨٢ ـ ٨٤.
(٦) محمود نديم ـ ن م ص ٤١ ـ ٤٢.
(٧) النويري ـ ن م. ورقة ١٠٨ ـ ١٠٩.
(٨) المقريزي ـ السلوك جـ ١ ق ٢ /٤٨٤ ـ ٥٣٣.
(٩) مؤلف مجهول ـ خزانة السلاح ص ٨٥ ـ حاشية ٨.
(١٠) ابن عبد الظاهر ـ تشريف الأيام ص ٥٤.
(١١) القلقشندي ـ صبح ٤/١١ ـ ١٢.
(١٢) ن م ٤/١٢.
(١٣) ن م ـ ٣٤٥/١١، النويري نهاية الإرب ٢٢٧/٨ ـ ٢٢٨.
(١٤) المقريزي ـ الخطط ١٥٧/٣.
(١٥) القلقشندي ـ صبح ٤٦٢/٥.
(١٦) ن م ـ ٤/١٢، ١٢٨/٢ ـ ١٢٩.
(١٧) ن م ـ ٤/١٢، ٤٧٠/٥.
(١٨) المقريزي ـ الخطط ٩٧/٢ ـ ٩٨.
(١٩) ن م ـ ٩٨/٢.
(٢٠) ن م ـ ١٠٣/٢.
(٢١) ن م ـ ١٠٤/٢.
(٢٢) ابن اياس ـ بدائع الزهور ١٥/٣.
(٢٣) المقريزي ـ الخطط ٩٨/٢.
(٢٤) ابن اياس ـ بدائع ١٥/٣، ماجد نظم ١٧٦ ـ ١٧٧.

(٢٥) القلقشندي - ن م ١٣/٤.
(٢٦) محمود نديم - ن م ص ١٥٥.
(٢٧) ن م - ص ١٦٢.
(٢٨) القلقشندي - صبح ١٣٧/٢.
(٢٩) علي إبراهيم حسن - ن م ص ٣٥٥.
(٣٠) يذكر القلقشندي «أنه كان يصرف على خزانة السلاح في كل سنة سبعون إلى ثمانين ألف دينار صبح ٤٧٣/٣.
وانظر ابن مماتي - قوانين الدواوين ٣٥٤.
(٣١) المقريزي - الخطط ١١٠/١.
(٣٢) انظر الأحكار في الخطط ١١٠/١.
(٣٣) الخالدي: المقصد الرفيع ورقة ١٣٣.
(٣٤) ابن اياس: بدائع الزهور ١١٨/٣ حوادث ٨٨٠.
(٣٥) مؤلف مجهول - خزانة السلاح ص ١١.
(٣٦) ابن اياس - بدائع ٢٠/٨، حوادث ٦٩٠، ن م ٢٦١/١١، حوادث ٧٨٤.
(٣٧) ابن عبد الظاهر - تشريف الأيام ص ٣٠.
(٣٨) ن م - ص ٧٨.
(٣٩) أبو المحاسن - النجوم ١٤٧/٧ - ١٦٠ - ١٦١، حوادث ٦٥٨.
(٤٠) ن م - ن م ٢٧/١٠، حوادث ٧٤٢، السلوك جـ ٢ ق ٥٧٤/٣.
(٤١) أبو المحاسن - النجوم ٤٢/١٠.
(٤٢) ابن اياس - بدائع جـ ١ ق٢٢٦/٢ حوادث ٧٨٠ هـ.
(٤٣) القلقشندي - صبح ١٢/٤. ٥٧/٩،
(٤٤) ن م - ١٩٠/٤.
(٤٥) ن م - ٣٤٦/١١ - ٣٤٧.
(٤٦) الظاهري - زبدة ص ١١٥.
(٤٧) مؤلف مجهول - خزانة السلاح، صبح ٣١٠/١٢.
(٤٨) ن م - ص ١٧، النويري - نهاية الإرب ٣٠٤/٨.
(٤٩) مؤلف مجهول - خزانة السلاح ص ١٦.
(٥٠) المقريزي - الخطط ٢٢١/٢، القلقشندي صبح ١٨/٤.
(٥١) الخالدي - المقصد ص ٢٨.
(٥٢) القلقشندي - ٢٠/٤.
(٥٣) ن م - ١٢/٤، الظاهري - زبدة ١١٤ - ١٢٢.
(٥٤) مؤلف مجهول - خزانة السلاح ص ١٧.
(٥٥) ن م ص.
(٥٦) ابن مماتي - قوانين الدواوين ٣٥٤.

(٥٧) النويري ـ نهاية الإرب ١/٣٠٢، مؤلف مجهول ـ خزانة السلاح ص ١٦ ـ ١٧.
(٥٨) إبن اياس ـ بدائع الزهور ٣٥٩/٤ ـ ٣٦٠.
(٥٩) النويري ـ نهاية الإرب ـ ٢٢٧/٨ ـ ٢٨٨.
(٦٠) القلقشندي ـ صبح ١٢/٤.
(٦١) يذكر المقريزي «وأما في العرف فالصناعة اسم لمكان قد أعد لإنشاء المراكب البحرية التي يقال لها السفن واحدتها سفينة وهي بمصر على قسمين نيلية وحربية فالحربية هي التي تنشأ لغزو العدو وتشحن بالسلاح وآلات الحرب والمقاتلة فتمر من ثغر الاسكندرية ودمياط وتسمى الغرما إلى جهاد أعداء الله من الروم والفرنج.. وأما المراكب النيلية فإنها تنشأ لتمر في النيل صاعدة الى أعلى الصعيد ومنحدرة إلى أسفل الأرض لحمل الغلال وغيرها» الخطط ١٨٩/٢.
(٦٢) ن م، ١٨٥/٢ ـ ٢٩٧.
(٦٣) ابن اياس ـ بدائع الزهور، حوادث ٩٢٨.
(٦٤) المقريزي ـ الخطط ١٨٩/٢.
(٦٥) ن م ـ السلوك جـ ١ ق ٢/٣٣٣.
(٦٦) ن م ـ الخطط ١٩٤/٢ ـ ١٩٥.
(٦٧) ن م ـ السلوك جـ ١ ق ٩٢٨/٣، الخطط ١٩٥/٢.
(٦٨) السيوطي ـ حسن المحاضرة ١٨٠/٢.
(٦٩) صفحات لم تنشر من بدائع الزهور ١١٥ ـ ٢١٦.
(٧٠) المقريزي ـ الخطط ١٩٥/٢.
(٧١) صالح بن يحيى ـ أخبار السلف ص ٣٠، أبو المحاسن النجوم ٣٠/١١.
(٧٢) عبد العزيز سالم ـ العبادي، ن م. ص ٣٢٠.
(٧٣) سعاد ماهر ـ ن م. ص ٣٢١.
(٧٤) ن م ـ ص ٣٢٢.
(٧٥) عبد العزيز سالم ـ العبادي ن م ـ ص ٢٢٦.
(٧٦) النويري ـ الالمام ورقة ١١٦ ب [الهند].
(٧٧) عبد العزيز سالم ـ العبادي ن م ١٣٠.
(٧٨) عبد العزيز سالم: تاريخ الاسكندرية ٣٦٣.
(٧٩) سعيد عاشور ـ قبرص والحروب الصليبية ٧٩.
(٨٠) انظر تفاصيل عن الأسطول في الخطط ١٩٤/٢ ـ ١٩٥.
(٨١) النويري الالمام ورقة ١٢٤.
(٨٢) عبد الفتاح عبادة ـ سفن الأسطول ص ٥ ـ ٦، سعاد ماهر ن م. ٣٣٩.
(٨٣) جميل خانكي ـ البحرية المصرية ص١٢٣.
(٨٤) سعاد ماهر ـ ن م ص ٣٥٩.
(٨٥) ن م ـ ص ٣٤٠ ـ ٣٤٩ ـ ٣٥١ ـ ٣٦٤.
(٨٦) عبد العزيز سالم ـ العبادي ن م ص ٢٥٧.

(٨٧) العمري - التعريف ص ٢٠٧، القلقشندي صبح ١٤٥/٢.
(٨٨) القلقشندي صبح ١٢٧/٥، سعاد ماهر ن م ص ١٩٩.
(٨٩) فتحي عثمان - الحدود الاسلامية ٣٧٤/٢.
(٩٠) محمد ياسين - الأسطول العربي ص ٧١.
(٩١) عبد العزيز سالم - العبادي، ن م ص ٢٨٤ حاشية ٢.
(٩٢) المقريزي - الخطط ٤٣٨/١، سعاد ماهر ن م. ٢٨١ وما بعدها.
(٩٣) محمد ياسين - تاريخ الأسطول ص ١٠٩.
(٩٤) النويري - الالمام ورقة ١٤٤.

الفصل الخامس

التدريب العسكري للقوات البرية والبحرية

أدرك المماليك كغيرهم من دول العالم أهمية التدريب العسكري لقواتهم المسلحة التي كان عليها أن تحارب في ميادين متعددة، الأمر الذي يتطلب منها تدريباً راقياً وتسليحاً وإعداداً على مستوى المسؤولية والأحداث، ولذلك فما يكاد المملوك يبلغ سن الرشد حتى ينخرط في سلك الجيش ويتم تدريبه على يد أناس متخصصين *، كما تم تعليمهم في مرحلة سابقة على يد علماء وفقهاء عينوا لهذا الغرض وكانت عملية التدريب تتم على مراحل كما يذكرها ابن قيم الجوزية في كتاب الفروسية[1] وهي على التوالي ركوب الخيل والكر والفر، والرمي بالقوس والطعن بالرماح والضرب بالسيف.

المرحلة الأولى

ركوب الخيل: وتبدأ بأن يقيم المدرب تمثالاً من الطين على هيئة الحصان وأحياناً يكون من الخشب أو الحجارة ويدربهم على كيفية الركوب والجلوس ثم يكلف المدرب أحد الجنود بالوقوف أمام التمثال، ويقوم الجندي الذي تحت التدريب بتكرار ما قام به مدربه، وفي هذه الفترة يقوم المدرب بإبداء بعض الملاحظات وتقديم بعض النصائح حتى يتقن الجندي عملية الركوب الصحيحة وبطبيعة الحال تتم عملية التدريب هذه على مسمع ومرأى من مجموعة أخرى من المتدربين، حيث يقوم هؤلاء الواحد تلو الآخر بتكرار التدريب حتى يتقنوه.

المرحلة الثانية.

وفي المرحلة الثانية يقوم المدرب بوضع السرج على ظهر التمثال ويأخذ في تدريب الجنود على كيفية الركوب عليه. في أول الأمر بدون سلاح ثم يحمل سلاحه، وكامل معدات قتاله، فإذا اطمأن المدرب الى أن رجاله قد اتقنوا هذا النوع من التدريب انتقل بهم الى خطوة جديدة وهي الضرب بالقوس في حالتي الكر والفر مع اختياره نوعية هادئة ومطيعة من الخيول، وبالذات في أول تدريبهم ثم يتدرج في التدريب على جميع أنواع الخيول حتى الشرسة منها.

وفي هذا المجال يذكر الحسن بن عبد الله « إن أصل الفروسية الثبات وإن مبتدأها إنما هو الركوب على العرى من الخيل ومن لم يتدرب أولاً على عرى لم يستحكم ثبوته ـ في الغالب ـ بل يكون أبداً قلقاً في سرجه، لا سيما عند ركضه. فلا يؤمن سقوطه إن اضطرب فرسه أو أصابته هنة ».

ويبدأ ذلك التمرين بأن يحضر الفارس فرساً عربياً مرتاضاً «وليقف عند يسار الفرس، ويضع يده على رأس منكبه وقد أخذ بها العنان ويثب عليه وثوباً مستوياً، ويميل ظهره، ويجعل اعتماده على شد الفخذين فهو أصل الثبات، ومن كان لا ينهض للوثوب فيثب على فرس قصير أياماً، حتى تخف نهضته، أو يجعل الفرس في وهدة، ثم يتدرج على أعلى من ذلك حتى يتدرب ويسهل عليه » [٢].

فإذا حذق المبتدىء كل ذلك تدرب على ركوب الفرس مسرجاً ويكون ذلك بأن يقف (الفارس على يسار الفرس متأخراً عن الركاب، ويضع طرف قدمه اليسرى في الركاب، ويمسك طرف معرفة الفرس بيده اليسرى، ويده اليمنى قربوس السرج القداميّ ويثب راكباً وبعضهم ينسل انسلالاً في الركوب والوثبة ويستوي في ظهر السرج على مقعده سواء ويشد فخذيه ووركيه والميل في ظهر الفرس[٣]، وعلى الفارس أن يتخذ له سرجاً واسعاً،

ليقلب فيه كيف يشاء، ويتبصر بأنواع الأعنة وطرق أخذها، فضلاً عن الركب وأحوالها ومقاديرها، فإذا أحكم وعلم كل ذلك وثب على الفرس بالدرع والجوشن وتمرن على ركوبه بالرمح وغيره من الأسلحة(٤).

فإذا اكتسب الفارس الخفة في كل ذلك، تمرن على السوق قليلاً قليلاً ومنه تدرج إلى الركض بالفرس، فإن استقام جريه تمرن على النزول والركوب على الفرس أثناء جريه أو الارتداد خلف فارس راكض وما أشبه ذلك من ركوب فرسين أو أكثر، فإذا أحذق كل ذلك تمرن على العمل بالأسلحة، وتدرب على طريقة أخذها من الأرض وهو راكض وكلها أمور تفيد الفارس المحارب، فإذا تم كل ذلك ساق الفارس فرسه ـ بعد تأديبه ـ إلى العمل به في الناوردات ومرنه على دخول البرجاس (٥)، وحين الطعان بالرمح ورمي القبق (٦) والقيغج (٧).

المرحلة الثالثة

بعد انتهاء الجيش من التدريب في مرحلته الثانية سينتقل تلقائياً إلى المرحلة الثالثة وهي الرمي، حيث يقوم المدرب بإحضار قوسين لسهمين فيأخذ أحدهما ويعطي الآخر للجندي، ثم يعلمه كيفية أخذ القوس وحمله، ويتم هذا أمام مجموعة من الجند (٨) فإذا أتقن الجندي هذه العملية يقوم المدرب ويعقد على الوتر من غير سهم، ويقوم الجندي بعمل مماثل ويطلق الوتر، فإذا أتقن الجندي ذلك يأخذ المدرب في تعليم المتدرب على كيفية إطلاق السهم بدون ريشة، وذلك في خمسة أقواس متدرجة الليونة، فإذا أتقن المملوك الرمي فإنه يرمي من « قلب القوس » على غير هدف، حيث، يخرج الى الصحراء، ويرمي في الفضاء، وعلى غير هدف كذلك، وهو بذلك ينظر إلى مسيرتها في الهواء، فإن رآها ضعيفة غير مضطربة رجع إلى مدربه ليدربه على رمي الأهداف منفرداً ثم يشترك مع إخوانه حتى يستفيدوا من بعضهم البعض الآخر، ويتجنبوا الأخطاء التي أدت إلى فشل بعضهم في إصابة الهدف، وجاء في مخطوط الرمي للطبري عدة أبواب:

كيف تضرب الهدف بالنشاب، صفة التصويب، صفة القبضة، صفة القفلة، صفة إفلات السهم. وقالوا في الرمي ثلاث مسائل:

أولها الإنسان والثاني في القوس والثالث في السهم، وهناك باب في أسرار الرمي في يوم الريح:

باب في الرمي على البعيد والقريب.

باب رمي الحصون.

باب الرمي من فوق الحصون [٩].

المرحلة الرابعة:

في هذه المرحلة يتم التدريب على الرمي بالقوس التي يكون من الصعود إلى الهبوط والعكس ثم الرمي على الأهداف الثابتة والجندي متحرك، تليها الأهداف المتحركة والجندي يتحرك في الاتجاه المضاد، إلى أن تدخل بعد ذلك المسافات القصيرة والطويلة إلى أن ينتهي من التدريب على الرمي على الحصون والقلاع والمراكب في البحر [١٠].

المرحلة الخامسة

وهي تدريب الجيش على استخدام الرمح، وهذه المرحلة تعتبر حاسمة وهامة نظراً لأهمية الرمح في المعارك العسكرية حتى قيل بأنه لا تحسن صفات الفارس وتتم إلا بالعمل بالرمح أو كما قيل وهو من الفروسية كالرأس من البدن [١١].

وكان التدريب على الرماح يتم على طريقتين:

الأولى: طريقة التدريب على الرمح بدون استخدام الخيول أي راجلين، وتبدأ بالتدريب على مسك الرمح ودخوله من تحت الإبط الأيمن على أن يكون

الجندي معتدل القامة ويكون طرف أسنان الرمح في إبهامه اليسرى ويجعله على ساعده ثم يعمل التدريبات التي دربه عليها مدربه (١٢).

الثانية: التدريب على استخدام الرماح أثناء ركوب الخيل وتبدأ عملية التدريب بتمكين الفارس من أخذ رسمه بيمينه وعنان فرسه بشماله مع دنوه للسرج، ويضع الحديدة الى أسفل الرمح بالأرض، ويبتعد عنه قليلاً، ثم يصدر قدمه اليسرى في ركابه اليسرى، ويعتمد على الرمح وينهض ليسوي قاعدة الظهر في وسط السرج ثم يأخذ في تسوية ثيابه بيمينه(١٣).

وعند الخروج للتدريب في المناورات، يبدأ الجندي في تسيير فرسه أولاً في الدائرة الواسعة ثم يتدرج في الدخول إلى الدوائر الضيقة وهذه العملية تحتاج من الفارس وفرسه إلى تدريب طويل وشاق كما يحتاج الفارس إلى فرس قوي ومطيع (١٤). فإذا أتقن المملوك ذلك الدوران دربه أستاذه على طرق الكر والفر بيمينه ويساره وكيفية مواجهة الخصوم والأقران لإبطال طعناتهم، وذلك بعد معرفته لشروط الطعن الصحيح والأماكن القاتلة وكنيتها (١٥).

المرحلة السادسة:

بعد التدريبات السابقة يبدأ التدريب على استخدام السيف، حيث يحضر طين ناعم يحرق بالنار ثم يعجن ويعمل منه حائطاً، وعلى الجندي أن يضرب في أول يوم خمسة وعشرين ضربة وفي اليوم الثاني خمسين ضربة مرة واحدة، وهكذا وبنفس النسبة حتى يضرب ألف ضربة دفعة واحدة، وبعدها تبدأ مرحلة قطع اللباد فوق ذلك الحائط، فيقطع المبتدىء ذلك اللباد طبقة بعد الأخرى، وتزداد عدة الطبقات من اللباد يوماً بعد يوم، حتى تصل عدد الطبقات إلى مائة طبقة وهو بكامل هيئة اللبس الميداني.

فإذا أتم الجندي ذلك انتقل إلى مرحلة قطع الورق بالسيف على المخدة وذلك بأن يقوم الجندي بوضع ورقة على المخدة، ويأخذ في ضربها، ثم يأخذ

عشرين طبقة من الورق، ثم يأخذ صفيحة ويكسوها بهذا الورق ويأخذ في ضربها حتى تنقطع طباق الوراق ويصل الى الصفيحة [١٦]، فإذا أتم الجند هذه المرحلة من التدريب انتقلوا إلى التدريب على استخدام السيف أثناء ركوبهم على الخيل، ولكي تتم هذه العملية يشرع في نصب عود من القصب الرطب ثم يبتعد عنه ويجعله الفارس عن يمينه ثم يجري بفرسه بسرعة فإذا حاذى هذا العود ضرب بسيفه ما يوازي منكبه ويكرر ذلك عدة مرات حتى يبقى منه طول ذراع، ثم يعيد الجندي نفس التدريب، فإذا اتقنه وضع خمس نشابات عن يساره ليضربها بسيفه، ويكرر ذلك عدة مرات ثم يضع خمس نشابات عن يمينه ويقوم بطعنها بيمينه ويساره [١٧]، وأخيراً يشرع المعلم في تدريب الفرسان على العمل بالسيف بمفرده، ثم يدربهم أيضاً على طرق الضرب بالسيف مع غيره من الأسلحة الأخرى.

وهكذا وبعد هذه التدريبات الشاقة ولكنها المنظمة يصبح الجندي جاهزاً للقتال، ويمكنه الالتحاق بميدان القتال حتى يكتسب الخبرة العملية على أرض الواقع.

إلى جانب كل ما ذكرناه كان على الجندي أن يكون ملمّا ببعض المعلومات عن طبائع الخيل. والأمراض التي قد تصاب بها وأسبابها وطرق علاجها علاجاً [١٨] سليمًا وطرق حمايتها ووقايتها، وكان الجنود يتلقون هذه المعلومات عن طريق محاضرات يلقيها ذوي الاختصاص، كما يجب أن يكونوا على دارية بالقسي والرماح والسيوف والأنواع المختلفة لكل منها، والطرق الناجعة لإصلاحها أو المحافظة عليها، ولعمري أن هذه الطرق تتبعها أرقى الجيوش الحديثة في أيامنا هذه مع اختلاف الطرق والوسائل بسبب اختلاف المعدات المستخدمة.

ومن الجدير بالذكر أن هذه التدريبات لم تكن تطبق على جميع جنود الدولة المملوكية بصفة عامة، لأن مماليك الأمراء كانوا أقل خبرة ودارية من

غيرهم لأنهم لم ينخرطوا في الطباق، ولكنهم يعيشون مع أمرائهم الذين كانوا يشرفون على تربيتهم وتدريبهم ومن هنا يظهر الفرق واضحاً في مستويات التدريب والقتال وأحياناً كان السلطان يتدخل في منع المماليك من رمي النشاب إذا وصلت العملية إلى حد غير مقبول من إثارة الفوضى حيناً ومن اتخاذ الرمي كتسلية حيناً آخر الأمر الذي دفع الناصر محمد أن يأمر بإغلاق دكاكين ومرامي النشاب أكثر من مرة، ويبدو من ملاحظة المقريزي هذه أن الناس بصفة عامة ومماليك الأمراء بصفة خاصة كانوا يكثرون من الرمي بالنشاب على سبيل التدريب والتسلية، فأقيمت مرامي النشاب وانتشرت في كل مكان (١٩)، وكان لطلبة المدارس نصيب في هذا التدريب فأقيمت لهم المراكز من أجل هذا الهدف (٢٠).

بعد تلك التدريبات العسكرية المتعددة التي كان يتلقاها جند المماليك، كانوا يتدربون على نمط معين ونظام خاص للقتال وهو القتال بنظام الصفوف فيذكر ابن خلدون «وبلغنا أن أمم الترك لهذا العهد ـ يعني العهد المملوكي ـ وقتالهم مناضلة بالسيوف والسهام، وأن تعبئة الحرب عندهم بالمصاف، وأنهم يقسمون بثلاثة صفوف يضربون صفاً وراء صف، ويترجلون عن خيولهم، ويفرغون سهامهم بين أيديهم ثم يناضلون جلوساً، وكل رد للذي أمامهم يكسبهم العدد إلى أن يتهيأ النصر لإحدى الطائفتين على الأخرى وهي تعبئة محكمة غريبة » (٢١) . ومما يدل على محافظتهم على نظام الصفوف ما يذكره المقريزي فيما يتعلق بمعركة عام ٧٠٢ هـ ضد المغول، إذ نودي في العسكر « من خرج من الأجناد عن المصاف فاقتلوه ولكم سلاحه وفرسه» (٢٢) وفي نفس الوقت يذكر «إن الأمراء الأكابر ظلوا طوال الليل دائرين على الأمراء والأجناد يرصونهم ويرتبونهم ويكثرون من التأكيد عليهم في التيقظ وأخذ الأهبة، فلما طلع فجر يوم الأحد إلا وقد اجتمع شمل عساكر السلطان، ووقف كل واحد في مصافه مع أصحابه» (٢٣) ومن أشهر الكتب التي تصف التدريبات التي يتلقاها الجيش المملوكي هو كتاب « الفروسية برسم الجهاد » تأليف محمد بن

أحمد بن لاجين الحسامي الطرابلسي المتوفي عام ٧٨٠ هـ / ١٣٧٩م والباب الأول من كتابه « في ركوب الخيل والنزول بالرمح » والباب الثاني « في المناصب الحربية » وتشمل الطعن الحجازي والطعن الروماني والكهرد الصغير والكبير والنارود الصغير والكبير والمقابلة والمقلوبة، والمجادلة والمنصوبة والمفارقة والملازقة والمخارجة والمضايقة والكر والفر والهزل والجد والأخذ والرد والطلوع والنزول[٢٤]. وكل هذه أساليب كان يتلقاها الجند أثناء تدريباتهم، ويذكر الرماح بأن الفارس «إذا فهم هذه الأشياء هان عليه كل صعب شديد».

تدريب رجال الأسطول

كانت فكرة تدريب القوات البحرية معروفة أيضاً كتدريب القوات البرية حتى يكتسب الجند خبرة بعمليات القتال في البحر وكذلك استخدام الأنواع المختلفة من الأسلحة البحرية كما هو الحال في الأسلحة البرية ولا نجد تفصيلات مرضية عن هذا الموضوع في المصادر التي توافرت لدينا، لكننا وجدنا مقتطفات مبعثرة هنا وهناك في كتاب القريزي فيذكر:

« عندما كان الخليفة الفاطمي يخرج لوداع الأسطول الخارج للقتال يجلس في منظرة كانت معدة لهذا الغرض.. فإذا جلس للوداع جاءت القواد بالمراكب من مصر إلى هناك للحركات البحرية بين يديه، وهي مزينة بأسلحتها ولبودها وما فيها من المنجنيقات فيرمي بها، وتنحدر المراكب وتقلع وتفعل سائر ما تفعله عند لقاء العدو[٢٥]... فلما كان زوال الدولة الفاطمية على يد السلطان صلاح الدين اعتنى بأمر الأسطول وأفرد له ديواناً خاصاً عرف بديوان الأسطول، وعين لهذا الديوان عدة أوقاف[٢٦]، فلما مات السلطان صلاح الدين استمر الحال في الأسطول قليلاً، ثم قل الاهتمام به وصار لا يفكر في أمره إلا عند الضرورة، فإذا دعت الحاجة إلى تجهيزه طلب له الرجال وقبض عليهم من الطرقات.. ».

وعندما سقطت الدولة الأيوبية وقامت الدولة المملوكية، اهتم السلطان

الظاهر بيبرس بأمر الأسطول، وأمر بإنشاء عشرين شونة وأحضر خمس شواني كانت على مدينة قوص، ولازم الركوب يومياً إلى دار الصناعة مدة شهر المحرم سنة سبعين وستمائة إلى أن تنجزت، «فلما كان في نصف المحرم سنة ٦٧١ هـ زاد النيل حتى لعبت الشواني بين يديه، فكان يوماً مشهوداً»[٢٧]، وفي عام ٦٩٢ هـ تقدم الملك الأشرف إلى وزيره ابن السلعوس بتجهيز الشواني فنزل إلى الصناعة واستدعى الرئيس وجهز جميع ما تحتاج إليه الشواني حتى كملت عدتها -نحو ستين شونة، وشحنتها بالعدد وآلات الحرب، ورتب بها عدد من المماليك السلطانية وألبسهم السلاح فأقبل الناس لمشاهدتهم قبل ركوب السلطان بثلاثة أيام، وصنعوا لهم قصوراً من خشب، وأخصاص القش على شاطىء النيل خارج مدينة مصر وبالروضة وأكتروا الساحات التي قدام الدور والزرابي بالمائتي درهم لكل زربية.. ولم يبق في القاهرة ومصر بيت إلا وخرج أهله أو بعضهم لرؤية ذلك الحفل، فصار جمعاً عظيمًا، وركب السلطان من قلعة الجبل، ووقف السلطان ونائبه الأمير بيدرا وبقية الأمراء قدام دار النحاس، ومنعوا الحجاب من التعرض لطرد العامة.. فبرزت الشواني الواحدة تلو الأخرى، وقد عمل في كل شونة برج وقلعة تحاصر، والقتال عليها ملح والنفط يرمى عليها! وعدة من النقابين في أعمال الحيلة في النقب، وما منهم إلا من أظهر في شونته عملاً معجباً، وصناعة غريبة يفوق بها على صاحبه، ويقدم ابن موسى الراعي وهو في مركب نيلية فقرأ قوله تعالى ﴿**قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء**﴾. والشواني تتواصل بمحاربة بعضها بعضاً[٢٨].

ويستطرد المقريزي: إن خبر الشواني قد وصل الى الفرنج فبعثوا رسلهم بالهدايا يطلبون الصلح وفي عام ٧٠٢ هـ ركب السلطان الناصر محمد ومعه الأمير بيبرس الجاشنكير وسائر الأمراء والعساكر فوقفت المماليك والعسكر نحو بستان الخشاب وعدّى الأمراء في الحراقات الى الروضة، وخرجت الشواني واحدة بعد واحدة فلعبت منها ثلاثة وخرجت الرابعة وفيها الأمير أقوش..

فلعبت بها الريح حتى مالت وانقلبت.. وتداركها الناس ورفعوا ما قدروا عليه من العدد والسلاح[٢٩].

ومن المعروف أن الأسطول قبل إقلاعه كان يشحن بكل ما يحتاج إليه البحريون والغزاة من الميرة والأزواد، فمن الأهراء السلطانية كانت تخرج جرايات الجند وما يعمل من القمح برسم الكعك لزاد الأسطول[٣٠].

كذلك كانت توسق المراكب بأنواع الفواكه والخضروات والبقول لغذاء البحريين كالرمان والسفرجل والبطيخ السندي والكمشري والتين والجوز والحمص والباقلا والثوم والبصل والجبن والأسماك وما إلى ذلك، كذلك كانت تخصص لحمل المياه اللازمة للشرب مراكب صغيرة يقال لها المركوش وكثيراً ما كان يصحب البحريين أطباء وقراء ومؤذنون لخدمة الغزاة في البحر.

ويجب أن نذكر هنا أنه كانت في معظم السواحل رباطات للنيل من الأعداء إن قدموا بحراً.

فأهل دمشق يرابطون في بيروت وأهل القدس يرابطون في الرملة أو يافا وأهل حمص في طرابلس وكانت قرية كفرسلام من قرى قيسارين في فلسطين ولها رباطات على البحر، وفي كل رباط قوم يذهبون في الرسالات ويحمل إليهم أصناف الأطعمة، ويضج بالنفير لما تتراءى مراكبهم، فإن كان الوقت ليلاً، أوقدت منارة ذلك الرباط وإن كان نهاراً دخنوا، ومن كل رباط إلى القصبة عدة منائر شاهقة، قد رتب فيها أقوام فتوقد المنارة التي للرباط ثم إلى التي تليها ثم الأخرى، فلا يكون ساعة إلا وقد أنفر بالقصبة وضرب الطبل على المنارة ونودي إلى ذلك الرباط وخرج الناس بالسلاح والقوة[٣١].

هذا وقد استخدم المماليك وسائل اخرى للاستفادة منها في وقت السلم والحرب ففي عام ٦٤٧ هـ عندما نزل الفرنج على المنصورة « سرح الطائر بذلك إلى القاهرة[٣٢] وفي عام ٦٨٠هـ حدث أن تسلل رجل من التتار إلى حماه وطلب من نائبها أن يكتب الساعة إلى السلطان على جناح الحمام وعرفه

أن القوم ثمانون ألف مقاتل تحت القلب.. وهم طالبون القلب والميمنة التي لهم قوية جداً فيقوي مسيرة المسلمين.. فقرأ السلطان الكتاب وركب عند أسفار الصباح لتقوية المسيرة (٣٣)، وفي عام ٧٢٧ هـ / ١٣٢٦ أرسل متولي الاسكندرية يخبر السلطان بالأحداث التي تفجرت بين المسلمين وتجار الفرنج فأصدر السلطان أوامره بطريق الحمام بالقضاء على هذه الفتنة (٣٤).

هذا وقد ساهم الحمام في إطلاع حكام المسلمين على كل ما يتجدد بالثغور وغيرها فقد جرت العادة أن يطلع نواب المملكة السلطان بما يتجدد عندهم على أيدي البريدية وتارة على أجنحة الحمام فتعود عليهم الأجوبة السلطانية وعليها العلامة (٣٥).

سلاح الفرسان

اعتمد المماليك في قوتهم العسكرية اعتماداً يكاد يكون تاماً على هذا السلاح، الذي تشكل فيه الخيل العنصر الرئيسي، فاجتهد السلاطين والأمراء في الإكثار من الخيول ليتمكنوا من التصدي للأخطار المحدقة بهم، وفي ذلك يقول الله عز وجل **﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم﴾** صدق الله العظيم.

ولهذا فقد بعثوا في طلبها من مختلف الأماكن، وإذا أحضرت يدربونها على فنون القتال كما كانوا يدربون فرسانهم.

وكانت أهم المناطق التي تزود سلاطين المماليك بما يلزمهم من خيول مصر وبرقة واليمن والحجاز والشام والعراق والبحرين (٣٦)، وكان السلاطين يكرمون من يجلب لهم الخيول، إذ يذكر المقريزي « فإن لهم الخلع والرواتب والعلوفات ولا تزال رسوم الإقامات خارجاً عن مسامحات تكتب لهم بالمقررات عن تجارة يتجرون بها مما أخذه من أثمان الخيول، وكان يثمن الفرس بأثمن أو بأزيد من قيمته حتى ربما بلغ ثمنه على السلطان نظير قيمته عليه عشر مرات غير الخلع » (٣٧). ويذكر أن السلطان الناصر محمد كان إذا جاءه شيء

من الجلب قام وقلبه بنفسه، فإذا أعجبه فرس دفع فيه العشرة والعشرين والثلاثين ألف درهم، هذا فضلاً عن آلاف المثاقيل من الذهب(٣٨)، وقيل أنه اشترى بنت الكرماء بمائتي ألف درهم وهي تساوي عشرة آلاف(٣٩) دينار، وقد بلغ من حبه لاقتناء الخيل إلى درجة أنه صرف في أثمانها مرة واحدة من جهة ناظر الخاص ألف ألف درهم في يوم واحد، وتكرر هذا منه أكثر من مرة، وبلغ ثمن الفرس الواحد من خيول آل مهنا الستين والسبعين ألف درهم(٤٠).

وقد ترك الملك الناصر ما مجموعه سبعة آلاف وثمانمائة(٤١) فرس، أما السلطان برقوق فإنه ترك من الخيل نحو ستة آلاف فرس(٤٢)، هذا وقد بلغت مصاريف الأمراء والسلاطين على خيولهم مبالغ طائلة فالسلطان الظاهر بيبرس كان يصرف على دوابه ودواب من يلوذ به في كل سنة ثمانمائة ألف درهم وتقوم بكلف الخيل وغيرها من العلوفات خمس عشر ألف عليقة في اليوم الواحد عنها ستمائة اردب، وهذا في مصر فقط(٤٣) وقد بلغ عليق خيول السلطان برقوق وأمرائه في الشهر الواحد ثلاثة عشر ألف أردب شعير(٤٤)، وبلغ ثمن عليق خيل الأمير شمس الدين بسيري وعليق مماليكه في اليوم الواحد ثلاثة آلاف عليقة(٤٥).

هذا وكان استيراد الخيول من الجهات المختلفة يتمشى ورغبة السلاطين فالسلطان المنصور قلاوون كان يميل إلى الخيول البرقية « فهو يرغب في خيل برقة أكثر من خيل العرب، ولا يعرف عنه أنه اشترى فرساً بأكثر من خمسة آلاف درهم، لكن السلطان الناصر محمد كان يميل إلى خيل العربان التي يجلبها له فرسان آل مهنا وآل فضل، ولهذا كان يبالغ في إكرام العرب، ويرغبهم في أثمان خيولهم حتى خرج عن الحد في ذلك. فتمكنت آل مهنا من السلطان وبلغوا في أيامه الرتب العالية، وكان لا يحب خيل برقة، وإذا أخذ منها شيئاً أعده للتفرقة على الأمراء البرانيين ولا يسمح بخيول آل مهنا إلا لأعز الأمراء وأقرب الخاصكية(٤٦)، وكان له في كل طائفة من طوائف

العرب عين يدله على ما عندهم من الخيل السابق أو الأصيل (٤٧) ولكثرة ما يبذله السلطان الناصر في ثمن الخيل لم تبق طائفة من العرب حتى قادت إليه عتاق خيلها (٤٨) ، أما السلطان برقوق، فقد أحب الخيول البرقية إذ كتب رسالة تهديد إلى تيمورلنك «نحن خيولنا برقية وسهامنا عربية وسيوفنا يمنيه»(٤٩).

وكان سلاطين المماليك لا يكتفون بصرف العلوفات لخيولهم كما رأينا وإنما كانوا يهتمون بالإشراف عليه وتنقيته وتصفيته، كما كانوا يهتمون بتربيع خيولهم لمدة أسبوعين «والأحسن أربعين يوماً. . . ثم بعد تمام الأربعين أو الستين يوماً من تربيعها تعلق شعيراً منقوعاً نحو أسبوع»(٥٠).

وكان المماليك يقيمون الاصطبلات المتعددة لخيولهم سواء في ذلك الأمراء والسلاطين «إذ أن كل أمير من أفراد أمراء المئين أو الطبلخانات سلطان مختصر في غالب أحواله. . . ولكل منهم بيوت خدم كبيوت خدم السلطان. . . وكذلك لكل منهم بيوت من اصطبلات الخيول ومناخات الجمال وشون الغلال (٥١).

وكانت الاصطبلات تنقسم إلى قسمين: الاصطبلات الشريفة وعددها أحد عشر اصطبلاً (٥٢) والقسم الثاني اصطبلات الأمراء حيث كان لكل أمير من أمراء المئين أو الطبلخانات الحواصل من اصطبلات الخيول وغيرها، وإن كل أمير كان يجيز حواصله برنك يختارك. . أما نائب الشام وأمرائه فكان لكل منهم اصطبله الخاص به. .

وكان يشرف على الاصطبل السلطاني موظفون ينقسمون إلى قسمين الأول أرباب الوظائف من أرباب السيوف ومنهم الأمير أخور، والثاني أرباب الوظائف الديوانية ومنهم ناظر وكاتب ديوان الاصطبلات الشريفة، والمعروف أن الملك الناصر محمد هو أول من عمل للاصطبل ديواناً وعمل له ناظراً وشهوداً وكتاباً

لضبط أسماء الخيل وأوقات ورودها وأسماء أربابها ومبلغ أثمانها ومعرفة سواسها وغير ذلك من أحوالها (٥٣).

ومن الوظائف ذات الصلة، نظر الاهراء وموضوعها التحدث فيما يصل من النواحي الغلال وغيرها، وما يصرف منها على الاصطبلات الشريفة والمناخات السلطانية وغير ذلك (٥٤)، وهناك مجموعة من الموظفين التابعين للاصطبلات من بينهم:

السبر آخورية	وهم كبار الجماعة الذين يتولون علف الدواب.
الغلمان	وهم الذين يتصدون لخدمة الدواب.
السواس	ويشترط في السائس أن يكون عارفاً بصنعة الدواب ومعرفة أوجاعها وأمراضها وما يوافقها من الأدوية والدهانات.
الأسطى	ويجب أن يكون عارفاً بسياسة الخيل الأصيل منها والخسيس.

وإلى جانب هؤلاء وجد الجشارية والبياطرة ومكاريه البغال والمباشرين على الاصطبلات، والمتكلم على ذلك جمعية أمير آخور كبير(٥٥)، وكانت هذه الوظيفة من الوظائف الهامة والخطيرة في السلم والحرب بحكم أن موضوعها (التحدث على اصطبل السلطان وخيوله)(٥٦) ودليل أهمية هذه الوظيفة أن السلطان كان يوليها فقط لم يثق فيهم ويأتمن جانبهم.

الهوامش

Ayalon. The mamluk military Society P 44 — 45

(١) ابن قيم الجوزية ـ الفروسية ص ١٠٦.

(٢) الحسن بن عبد الله آثار الأول ص ١٧٧'

وأنظر أماكن التدريب في Ayalon: Gum Powder P 53

(٣) الحسن بن عبد الله ـ ن م. ص ١٧٧.

(٤) ابن هذيل ـ حلية الفرسان ص ٢٠٥ الحسن بن عبد الله ص ١٧٧ ـ ١٧٨.

(٥) البرجاس ـ هدف خشبي مكون من سبع قطع يركب بعضها فوق بعض، حتى يوازي ارتفاعها رأس الفرس وينتهي هذا الهدف بحلقة من المعدن، فإذا دنا الفارس من البرجاس صوب رمحه إلى القاعدة المعدنية بقصد إسقاطها من قاعدتها.

(٦) القبق: وهو عبارة عن خشبة تنصب في أعلاها جسم أشبه بالقرعة العسلية، وكان المماليك يجعلون في وسطها حمام ويسوقون ويرمونها في أيام المواسم والأعياد وانظر في هذا أيضاً

Ayalon. The mamluk military Society P 55.

(٧) القيغج ـ والراجح أنه قفة من الرمل كانت المماليك تسوق وترمي فيها السهام ـ نبيل عبد العزيز الخيل ص ٦٦.

(٨) ابن هذيل ـ ن م ص ٢٦.

(٩) الطبري ـ الرمي بالنشاب مخطوط غير مرقم.

(١٠) ابن هذيل ـ ن م ـ ص ٣١ Elqood, Islamic P. 84.

(١١) ابن حنكلي التدابير السلطانية ورقة ١٢ ـ ١٣ ـ ابن هذيل ص ١٦

Ayalon. The mamluk military Society P 48.

وقد أورد بكتوت الرماح في مخطوط الفروسية وعلاج الخيل عدة أبواب عن التعليم على القتال بالرمح:

باب في شيل الرمح إذا ركبت ـ باب في خروج الفارس للفارس.

باب في خروج الفارس لمجموعة من الفرسان.

باب في خروج الفارس للراجل ـ باب خروج الراجل للراجل.

(١٢) طيبغا ـ الجهاد والفروسية ورقة ٢٢، ابن سيدة المخصص ٥٣/٦.

وهناك مخطوط كامل عن البنود في معرفة الفروسية لنجم الدين الأحدب وفيه شرح واف وتفصيل عن كيفية القتال في الميدان بمختلف الأساليب والوسائل ويركز على استخدام السيف والرمح أثناء الركوب.

انظر الرسومات El qood — Islamic P: 184

(١٣) ابن منكلي ـ التدابير السلطانية ورقة ٥٤ .

ويذكر يلبغا الأشرفي في مخطوط كامل الصناعتين في الفروسية «إن الفارس إذا إختار رمحه فعليه أن يختار رمحاً ليس بثقيل وليس بخفيف» ويقول: «إذا التقيت مع خصمك فقابله رجزاً واطلبه قهراً ولا تقصده جهلاً وحاوله وخاطئه وخارجه» «غير مرقم».

(١٤) محمود نديم ص ٣٧.

(١٥) المقريزي ـ السلوك جـ ١ ق ٣ حوادث ٨٨٦ هـ.

وانظر حسام الدين لاجين «مخطوط في الميادين» غير مرقم ويتحدث فيه عن أنواع الميادين وتشكيلاتها العسكرية والظروف التي تلائم كل منها ولها أسماء مختلفة منها الافرنجي ومنها ميدان الملوك وسياج الملوك، وميدان حفظ الملوك وميدان البقجة، وميدان الكلاليب وهو ميدان المقابلة والمخالفة، وميدان الصفوف وتسمى صفوف المداخلة والمطاردة والكر والفر، وميدان حرب الحروب، وفي هذا الميدان يكون الجيش مصفوفاً بعضه وراء بعض وسمي بهذا الاسم لأنه جمع كبير ويكون كلامهم بالهمز، ولا يعيطوا ولا يتحركوا إلا عندما يشير عليهم المقدم.

(١٦) بكتوت الرماح نهاية السؤول والأمنية، أورد صاحب كامل الصناعتين، باباً خاصاً في كيفية قطع الورق على اللباد بالسيف.

(١٧) محمود نديم ـ ن م ص ٣٨.

(١٨) ابن قيم الجوزية ـ ن م ص ١٢ .

ويذكر الرماح في كتابه الفروسية وعلاج الخيل «إن كل فارس لا يعرف يعالج فرسه فهو ناقص من الفروسية ـ ويتحدث المخطوط عن طرق ووسائل متعددة ومختلفة لعلاج الخيل، يتحدث عن الداء ويصف الدواء، ويحث الرماح والفرسان على تعلم هذه الطرق والوسائل ومن ورقة ٤١ يبدأ علم علاج الخيل..».

(١٩) المقريزي ـ السلوك جـ ٢ ق ٤٥٥/٢ ـ ٤٨٤ ـ ٥٣٣ .

(٢٠) ابن كثير ـ البداية والنهاية ١٢/١٤ .

(٢١) ابن خلدون ـ المقدمة ص ٢٥٦ .

(٢٢) المقريزي ـ السلوك ٩٣٣/١.

(٢٣) ن م ـ ن م ٩٣٥/١.

(٢٤) علي ابراهيم حسن ن م ص ٣٥٣ ـ ٣٥٤.

أورد الأشرفي الرماح صاحب كامل الصناعتين أبواب متعددة عن تدريب الفارس نذكر منها ـ الباب الرابع والخامس والسادس والسابع ـ عن كيفية الضرب بالرمح ومواجهة الخصم ومهاجمته، الباب ٨، ٩ عن صدام الفارس مع الفارس وعن كيفية تحرك الفارس وتعامله مع الآخرين.

الباب: ١١ عن الجذع الحربية الباب ١٢ عن المقابلات وكلها ليست سواء وهي على أنواع ولكل مقابلة تدبير.. ومنها المقابلة والمحاولة ومنها في المغالطة.. الباب ١٨ إذا أطبق عليك العدو كحلقة فكيف تتصرف، وهناك أبواب في الطعن بالرمح ووجوهه وأسراره.

(٢٥) المقريزي ـ الخطط ١٩٣/٢ .

(٢٦) المقريزي ـ الخطط ١٩٤/٢.
(٢٧) ن م ص.
(٢٨) ن م ص ١٩٥.
(٢٩) ن م ص.
(٣٠) المقريزي ـ الخطط ٣٤٨/٢.
(٣١) محمد الحموي ـ سفن الأسطول العربي ص ١١١.
(٣٢) المقريزي ـ السلوك جـ ١ ق ٣٥١/٢.
(٣٣) الدوادار ـ زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ١٧٢، المقريزي السلوك جـ ١ ق ٦٩١/٣.
(٣٤) المقريزي ـ السلوك جـ ٢ ق ٢٨٤/١ حوادث ٧٢٧.
(٣٥) ن م ـ الخطط ٢١١/٢ وانظر Studies on The mamluk P 263 VIII
(٣٦) الظاهري ـ زبدة ص ٣٦، القلقشندي صبح ٣٦٣/١ ـ ٦٧/٤.
(٣٧) المقريزي ـ الخطط ٢٢٧/٢، نبيل عبد العزيز الخيل ص ١١.
(٣٨) أبو المحاسن ـ النجوم ١٦٧/٩، حوادث ٧١٠، الخطط ٢٢٤/٢.
(٣٩) ن م ص.
(٤٠) أبو المحاسن ـ النجوم ١٧٠/٩، حوادث ٧١٠، الخطط ٢٢٤/٢.
(٤١) ن م ص ـ نبيل عبد العزيز الخيل ص ١٦.
(٤٢) المقريزي ـ الخطط ٢٢٤/٢.
(٤٣) أبو المحاسن ـ النجوم ١٩٨/٧.
(٤٤) المقريزي ـ الخطط ٢٢٤/٢.
(٤٥) أبو المحاسن ـ النجوم ١٨٦/٨، حوادث ٦٩٨ هـ.
(٤٦) أبو المحاسن ـ ن م ١٦٧/٩، حوادث ٧١٠، السلوك جـ ٢ ق ٢٢٦/٢.
(٤٧) أبو المحاسن ـ ن م ص.
(٤٨) المقريزي ـ الخطط ٢٢٤/٢.
(٤٩) أبو المحاسن ـ النجوم ٥١/١٢، حوادث ٧٩٢.
(٥٠) نبيل عبد العزيز ـ الخيل ص ٢٧.
(٥١) القلقشندي ـ صبح ٦٠/٤.
(٥٢) اصطبل الخاص الشريف، اصطبل الحجورة، اصطبل الجوق، اصطبل البيمارستان، اصطبل الجشار، اصطبل البريد، اصطبل البغال، اصطبل المناخ، اصطبل الهجن والنياق، اصطبل الفيل ثم اصطبل السباع.
الظاهري زبدة ١٢٥.
(٥٣) أبو المحاسن ـ النجوم ١٦٨/٩، حوادث ٧١٠، السلوك جـ ٢ ق ٥٢٧/١.
(٥٤) القلقشندي ـ صبح ٣٣/٤.
(٥٥) الظاهري ـ زبدة ص ١٣٦، السبكي، معيد النعم ص ١٠١.
(٥٦) القلقشندي ـ صبح ١٨/٤.

المصادر والمراجع

المخطوطات

١ ـ ابن اربنغا الزردكاش الأنيق في المنجنيق ميكروفيلم مصور بالجامعة العربية فنون حربية.

٢ ـ بكتوت الرماح نهاية السؤول والأمنية في تعلم أعمال الفروسية. مخطوط بجامعة القاهرة.

٣ ـ ابن حبيب درة الأسلاك في دولة الأتراك. شهاب الدين الشافعي ت ٨٨٩ هـ.

٤ ـ حسام الدين لاجين كتاب الميادين. ٤ فنون حربية بدار الكتب المصرية.

٥ ـ الخالدي المقصد الرفيع المنشا الهادي الى صناعة الانشا. مخطوط مصور بجامعة القاهرة.

٦ ـ ابن دقماق ت ٨٠٩ هـ صارم الدين ابراهيم بن محمد الجوهر الثمين في سير الملوك والسلاطين، مخطوط بدار الكتب.

٧ ـ الدوادار بيبرس الأمير ركن الدين ت ٧٢٥ هـ زبدة الفكر في تاريخ الهجرة الجزء التاسع مخطوط بجامعة القاهرة.

٨ ـ سيد عبد القادر الكلالي كشف الغمة في بيان حرب النظام حق على هذه الأمة، مخطوط بدار الكتب المصرية.

٩ ـ عبد الرحمن بن أحمد الطبري كتاب الرمي بالنشاب، ٤ فنون حربية بدار الكتب المصرية.

١٠ ـ أبي عبد الله محمد بن محمد: **تفريج الكروب في تدبير الحروب**.
١١ ـ العيني ت ٨٥٥ هـ بدر الدين محمود بن أحمد: **عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان** مخطوط مصور بدار الكتب المصرية ١٥٨٤.
١٢ ـ محمد بن منكلي: **الأحكام الملوكية والضوابط الناموسية في فن القتال في البحر** ـ مخطوط بدار الكتب المصرية.
١٣ ـ ن م **التدبيرات السلطانية في سياسة الصناعة الحربية** ـ مخطوط جامعة القاهرة رقم ٣٦٣٣٧.
١٤ ـ نجم الدين الأحدب: **البنود في معرفة الفروسية** ٤ أ فنون حربية بدار الكتب المصرية.
١٥ ـ النويري ت ٧٧٥ هـ محمد بن قاسم بن محمد: **الإلمام بالاعلام فيما جرت به الأحكام والأمور المقضية في واقعة الاسكندرية**، مخطوط بدار الكتب.
١٦ ـ يلبغا الأشرفي المعروف بالرماح: **كامل الصناعتين في الفروسية والشجاعة**. ٤ فنون حربية بدار الكتب المصرية.
١٧ ـ لاجين بن عبد الله الذهبي الحسامي المعروف بالطرابلسي ت ٧٣٨ هـ **تحفة المجاهدين في العمل في الميادين**. مخطوط بالجامعة العربية فنون حربية رقم ١٢.
١٨ ـ **عيارات النفط** مجهول المؤلف ميكروفيلم بالجامعة العربية.
١٩ ـ **الرماح الفروسية** ميكروفيلم بمعهد المخطوطات بالجامعة العربية فنون حربية ٣٨.

المصادر والمراجع المطبوعة

١ - ابن إياس أبو البركات محمد بن أحمد (١٥٢٣/٩٣٠) بدائع الزهور.

٢ - إبن البيطار ضياء الدين عبد الله بن أحمد الأندلس (ت ٦٤٦ هـ/١٢٤٨ م) الجامع لمفردات الأدوية طـ ١٢٩١ هـ.

٣ - ابن جبير رحلة ابن جبير.

٤ - ابن خلدون (عبد الرحمن) مقدمة ابن خلدون.

٥ - إبن خلدون (٨٠٨ هـ) العبر.

٦ - إبن شاهين الطاهري غرس الدين خليل (١٤٦٧/٨٧٣) زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك طـ ١٨٩٤.

٧ - إبن العبري: تاريخ مختصر الدول طـ ١٨٩٠.

٨ - إبن عبد الظاهر (محيي الدين) ت ١٢٩٣/٦٩٢ تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور ط ١٩٦١.

٩ - إبن الفرات ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم بن علي المصري ت ٨٠٧هـ تاريخ ابن الفرات ط ١٩٤٢.

١٠ - إبن قيم الجوزية (٧٥١ هـ) الامام الحافظ شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر: الفروسية ط ١٣٦٠.

١١ - إبن كثير (ت ٧٧٤) الحافظ عماد الدين أبو الفدا إسماعيل بن كثير البداية والنهاية.

١٢ - إبن مماتي (ت ١٢٠٩/٦٠٦) القاضي شرف الدين أبو المكارم: قوانين الدواوين ١٩٤٣.

١٣ ـ إبن هذيل حلية الفرسان.
١٤ ـ إبن واصل (جمال الدين أبو عبد الله محمد: ت ١٢٩٧/٦٩٧) مفرج الكروب في أخبار بني أيوب.
١٥ ـ د. إبراهيم طرخان: النظم الاقطاعية في الشرق الأوسط ١٩٦٨.
١٦ ـ ن م مصر في عصر الجراكسة ١٩٦٠.
١٧ ـ إحسان هندي: الحياة العسكرية عند العرب ط دمشق.
١٨ ـ أحمد عدوان: التاريخ الاقتصادي لدولة المماليك.
١٩ ـ إسماعيل سرهنك: حقائق الأخبار في دول البحار ط ١٩٢٣/ ١٣٤١.
٢٠ ـ اميل لودفع: النيل ترجمة عادل زعيتر ط ١٩٥١.
٢١ ـ انطوان ضومظ: الدولة المملوكية ط ١٩٨٠.
٢٢ ـ الباز العرينـي: المماليك.
٢٣ ـ بولياك: الإقطاعية في مصر وسوريا وفلسطين ترجمة عادل زعيتر بيروت ١٩٤٨.
٢٤ ـ البلاذري: فتوح البلدان.
٢٥ ـ جميل خانكي: البحرية المصرية ط ١٩٤٨.
٢٦ ـ جورجي زيدان: التمدن الإسلامي.
٢٧ ـ جوزيف نسيم: العدوان الصليبي على مصر.
٢٨ ـ الحسن بن عبد الله بن محمد: آثار الأول في ترتيب الدول ط ١٨٨٧.
٢٩ ـ حسين نصار: النجوم الزاهرة في حلي مصر والقاهرة.
٣٠ ـ سعاد ماهر: البحرية الاسلامية ١٩٦٧.
٣١ ـ السيوطي: (الحافظ جلال الذين عبد الرحمن ت ٩١١ هـ) حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة.
٣٢ ـ صالح بن يحيى: أخبار السلف (المعروف بتاريخ بيروت) ط ١٩٢٧.
٣٣ ـ الطبري (محمد بن جرير): تاريخ الرسل والملوك.
٣٤ ـ عبد الرازق بركات: الرسالة الفنية ط ١٣٤٢.
٣٥ ـ عبد الرحمن زكي: السيف في العالم الإسلامي ط ١٩٥٧
٣٦ ـ عبد الرحمن زكي: مقال في مجلة المقتطف ١٩٤٠.

٣٧ ـ عبد الرحمن زكي: السلاح من عصر الحيلة مجلة المصور ١٩٧٠ .
٣٨ ـ عبد العزيز سالم: تاريخ الإسكندرية ١٩٦٩ .
٣٩ ـ عبد العزيز سالم ـ أحمد مختار العبادي: البحرية الإسلامية ١٩٧٢ .
٤٠ ـ عبد الفتاح عبادة: سفن الأسطول الإسلامي ١٩١٣ .
٤١ ـ علي إبراهيم حسن: تاريخ المماليك البحرية ١٩٦٧ .
٤٢ ـ علي مبارك: الخطط التوفيقية الطبعة الأولى.
٤٣ ـ العمري: التعريف بالمصطلح الشريف ط ١٣١٢ .
٤٤ ـ فتحي عثمان: الحدود الإسلامية.
٤٥ ـ أبو الفدا (٧٧٤هـ): المختصر في أخبار البشر.
٤٦ ـ القلقشندي (أبو العباس أحمد بن علي): صبح الأعشى.
٤٧ ـ ماجد (عبد المنعم): نظم دولة سلاطين المماليك ط ١٩٧٩ .
٤٨ ـ أبو المحاسن (ابن تفري بردي): النجوم الزاهرة.
٤٩ ـ محمد عبد العزيز مرزوق: السلطان الناصر محمد بن مروان.
٥٠ ـ محمد ياسين الحموي: تاريخ الأسطول العربي ط ١٩٤٥ .
٥١ ـ محمود نديم: الفن الحربي.
٥٢ ـ مرضي بن علي الطرسوس: تبصرة أرباب الألباب في كيفية النجاة في الحروب من الأسواء ونبشر أعلام الاعلام في العدد والآلات المعينة على لقاء الأعداء تحقيق كلود كاهان ١٩٤٨ .
٥٣ ـ المقريزي: الخطط المقريزية (أحمد بن علي ٨٤٥) السلوك في معرفة دول المملوك.
٥٤ ـ النابلسي: لمع القوانين.
٥٥ ـ نبيل عبد العزيز: الخيل ورياضتها.
٥٦ ـ مؤلف مجهول: خزانة السلاح تحقيق نبيل عبد العزيز.
٥٧ ـ اليونين: الذيل على الروضتين.

Atiya A. S.
— Egypt and aragon - Leipzig 1938.
— The crusade in the latter middle ages London 1938.
Ayalon D.
— Gun powder and fire arms, in the mamluk Kingdom 1955.
— Studies on the mamluk of Egypt 1972.
— The system of payment mamluk military society.
Journal of Economic and social History of orient 1 / 183 (Lieden 1958).
El qood
— Islamic arms and armour Fatima Sadique Baypars I 1955.
Hill
— History of Cyprus. Comb 1948
John Clubb.
— The story of the mamluc 1973.
Lone Poole
— History of Egypt 1973.
Muir.
— The mamluc or Slave Dynasty 1896.

الفهرس

من اصداراتنا

١ - الأصالة العربية في لهجات الخليج
د. عبد العزيز مطر
٢- التلفزيون الإسلامي

٣ - العسكرية الإسلامية في العصر المملوكي
د. أحمد محمد عدوان
٤ - العربية الحديثة
د. محمد منير موسر
د. محمد بن اسماعيل